نونية أبى إسحاق الإلبيري الأندلسي ت٤٦٠هـ

دراسة أدبية تحليلية

إعداد الدكتور

مصطفى عبداللطيف أحمد أبوطه

مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

نونية أبى إسحاق الإلبيري الأندلسي ت٤٦٠هـ
دراسة أدبية تحليلية

إعداد الدكتور

مصطفى عبداللطيف أحمد أبوطه

مدرس الأدب والنقد فى كلية اللغة العربية

فرع جامعة الأزهر بالزقازيق

المقدمة

الحمد لله الذى علم بالقلم، علم الإنسان ما لم يعلم، والصلاة والسلام على خير البشر، وأفصح العرب، ومن أوتي جوامع الكلم سيدنا محمد النبي العربى الأكرم، وعلى آله وصحبه النجب الطهر ٠

وبعد ،

فهذه دراسة أدبية تحليلية لواحدة من قصائد الشعر الأندلسى البارزة فى عصر ملوك الطوائف ٤٢٢ ــ ٤٩٣هـ، نال بها صاحبها أبوإسحاق الإلبيرى شهرة وذيوعا، مع ما عرف عنه، واشتهر بين شعراء عصره بأنه شاعر الزهد الكبير؛ حيث يغلب على شعره هذا التوجه، أعنى: الزهد، بل كاد يمثل شعره إلا قليلا ٠

تلك القصيدة هى النونية التى أرى أنها تستحق الدراسة، وتستأهل البحث؛ حيث إنها تعالج موضوعا مهما فى غاية الأهمية، إنه موالاة المسلمين غيرهم من اليهود والنصارى، واتخاذهم أولياء من دون المؤمنين ٠

وبجانب هذا فهي ــ أي القصيدة ــ تجسد دور العلماء آنئذ، حيث كانوا يجهرون بالحق، ويعلون به أصواتهم ــ لا يخافون فى ذلك لومة لائم، ولا بطش حاكم، ولا فتك سلطان ٠

كما أنها ــ أي تلك القصيدة ــ تجسد حال اليهود ، وتقف على طبيعتهم لاسيما بعد أن يمكنوا فى الأرض، وتكون لهم كلمة مسموعة...

من أجل ذلك وجدتنى أقبل ــ فى قناعة ــ على هذه القصيدة بالدرس والتحليل، مفيدا فى ذلك ببعض المصادر الأندلسية التى عنيت بالحديث عن هذه القصيدة، وكذا بعض الدراسات الحديثة التى أشارت إليها، مما سيرد ذكره فيما يقبل من صفحات هذه الدراسة ــ إن شاء الله تعالى ــ ٠

هذا وقد اقتضت طبيعة تلك الدراسة أن تأتي فى فصلين يسبقهما تمهيد، وتعقبهما خاتمة، ثم تأتى فى النهاية قائمة المصادر والمراجع٠

أما التمهيد فجاء بعنوان: الشاعر أبو إسحاق الإلبيري فى مرآة عصره، وقد تحدثت من خلاله عن:

أ - التعريف بالشاعر٠

ب - حديث موجز عن عصره، وإطلالة عامة على أهم أحداثه٠

وأما الفصل الأول فجاء بعنوان: من معالم التجربة الإبداعية فى القصيدة النونية، وقد تضمن النقاط التالية:

أ - القصيدة النونية ــ النص واللغة ٠

ب - مناسبة القصيدة، وقيمتها، وأثرها فى عصرها٠

جـ- الأفكار العامة، والموضوعات الرئيسة فى القصيدة ـ إيضاح وتفصيل.

بينما جاء الفصل الثانى بعنوان: البنـاء الفنـي للقصـيدة .. ويحتوى على النقاط التالية:

أولا: الوحدة العضوية .

ثانيا: الألفاظ والتراكيب.

ثالثا: الصورة الفنية .

رابعا: العاطفة .

خامسا: الموسيقى .

وتأتى بعد ذلك خاتمة البحث، وفيها ذكر لأهم النتائج المستفادة من هذه الدراسة بعد التعايش مع جزئياتها.

ثم يأتى فى النهاية ثبت بالمصادر والمراجع التى أفادت منهـا تلكم الدراسة.

وإننى فى هذا المقام أرجو وآمل من ربى ـ سبحانه ـ أن يمن على بالتوفيق والسداد، إنه ـ سبحانه ـ أكـرم مسـئول، وأرجـى مأمول، وهو من وراء القصد، والهادى إلى سواء السبيل.

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ صدق الله العظيم

الباحث

د/ مصطفى عبداللطيف أحمد أبوطه

التمهيد

التعريف بالشاعر أبى إسحاق الألبيرى ت٤٦٠هـ ، وإطلالة سريعة على عصره٠

أولا : التعريف بالشاعر:

الشاعر هو إبراهيم بن مسعود بن سعد التجيبي ــ يلقب بالإلبيري ، ويكنى: أبا إسحاق، فقيه فاضل، وزاهد عارف، كثير الشعر فى ذم الدنيا، مجيد فى ذلك .. كان من الرواة الثقات فى عصره، كما كان موصوفا بالعلم والكياسة والزهد الحقيقى والورع الشديد، حيث كان ــ رحمه الله ــ من الأمثلة الحية بين أهل الفضل والعلم والفقه ٠

ولد رحمه الله نحو سنة ٣٧٥هـ ــ فى حصن العقاب، ونشأ فيها نشأته الأولى، ثم خرج إلى البيرة ... وفى هذه الحاضرة استقر، واستزاد من علومه، ولقى الشيوخ، وروى عنهم ، وتبحر فى العلوم الشرعية، واشتهر بالفقه والقراءات القرآنية، حيث تكونت فى هذه الفترة شخصيته العلمية ، وظهر بين أصحابه وأقرانه، ونشر فيهم أوائل شعره ، وصار معروفا لديهم بالشعر مثلما عرفوه فقيها متميزا٠

وقد انتقل الإلبيرى بعد ذلك إلى غرناطة، وفى المدة التى قضاها بها كثر أصحابه، وتلامذته وقراء شعره، وكان بعض شعره ينشد ويحتفل به، كما كان شعره كله مما يتابعه الناس، ويعجبون به٠

وقد عرف الإلبيرى بشاعر الزهد الكبير فى الأندلس؛ حيث أكثر من القول فى ذلك اللون من الشعر كثرة مسترعية للانتباه، ولافتة للأنظار، لدرجة أن شعر الزهد يمثل أغلب نتاجه الشعرى ... ولم

يكن توجهه إلى الزهد من قبيل القول فقط، وإنما استحال ذلك إلى سلوك عملى فى الحياة، فبدا أثر ذلك التوجه ــ بجلاء ــ فى حياته وواقعه ومعاملاته بين الناس، حيث كان ــ رحمه الله ــ معول بناء فى مجتمعه آنذاك؛ بما كان يقوم به من التنبيه على المشكلات الاجتماعية التى كانت تؤدى إلى التقاعس والخمول، وأيضا من خلال دعوته إلى الجهاد ومحاربة الأعداء بلا هوادة، وفى دعوته كذلك إلى رفع الظلم عن الناس، قاصدا من وراء ذلك كله إلى تلطيف سلوك الناس المندفعين إلى ملاذ الحياة وشواغلها وبهرجها ، والإشراف عليها فى وقت يتطلب التقشف والجهاد والمجاهدة والجد، حيث كان ــ رحمه الله ــ فى ذلك المجال فارسا لا يشق له غبار ــ صلاحا، وعبادة، ومعاملة.

ثانيا : إطلالة سريعة على عصره:

أدرك الشاعر من العهود السياسية فى الأندلس ثلاثة، يمكن إجمال القول فيها على النحو التالى:

١ – حيث أدرك دولة العامريين بالأندلس ــ تلك المدة التى تسلط فيها محمد بن أبى عامر الملقب بالحاجب المنصور.

٢ – وأدرك أيضا مدة الفتنة، حيث نهض بنوأمية لاسترداد ما سلبهم إياه ابن عامر وأولاده من السلطة، والقيام بشئون الناس.

٣ – كما عاصر مدة دول الطوائف ٤٢٢ ــ ٤٩٣هـ ــ تلك التى شهدت ميلاد القصيدة النونية، وقد مات أبوإسحاق فى أثناء تلك الفترة وتحديدا فى سنة ٤٦٠هـ ــ قبل انهيار الأندلس الكبير بسقوط طليطلة سنة ٤٧٨هـ .

وكان مِن بين مَن تولى الحكم فى هذه الفترة حبوس بن ماكسن، حيث استمر حكمه حتى سنة ٤٢٩هـ ، بعد ذلك تولى الحكم ولده باديس بن حبوس الذى استمر على ولايته حتى ٤٦٩هـ.

وفى زمن دولة باديس تولى أبوإسحاق الإلبيرى ــ الكتابة للقاضى أبىالحسن بن توبة مدة غير قليلة ، وباديس: هو المعني بالقصيدة النونية ــ موضع الدراسة ، والتى أسهمت إسهاما كبيرا فى الثورة على الوزير المتسلط المتآمر على الأمير نفسه، وعلى أسرته، وعلى أهل غرناطة : يوسف بن إسماعيل بن النغريلة.

ولهذا الوزير اليهودي خبر يطول فى دولة باديس بن حبوس الذى أسلم إليه قياد دولته حتى ظلم، وطغى، ودعا الناس إلى الثورة عليه، والإطاحة به.

حيث كان لحبوس كاتب بارع يعرف بأبىالعباس، وكان لهذا الكاتب ــ الذى له مهمة الوزير، وصلاحيته ــ كاتب آخر يساعده، ويقوم بالشئون الديوانية التى يكلفه بها أبوالعباس، ذلك الكاتب هو إسماعيل بن النغريلة اليهودى، فلما توفي أبوالعباس أقام حبوس أحد أولاده مكانه، وكان فتى غرا قليل المتابعة للأعمال الإدارية، فمكن ابن النغريلة من نفسه، وطرح الفتى الكاتب وراءه، وصار هو فى مكانه ــ الكاتب الرئيسى، والوزير الذى يدير شؤون الدولة.

وكان يوسف بن النغريلة ــ إلى طغيانه وتآمره على بيت باديس ــ مظاهرا بحاله، متورطا فى الخوض فى مسائل الدين، والطعن فيه، وإلصاق التهم به[1].

---

(١) لهذا الوزير الأفاق كتاب تورط فيه فى الكلام عن مسائل إسلامية، وقد تصدى له عدد من العلماء فردوا عليه، وبينوا ضعفه وتهافته، ومنهم الإمام ابن حزم فى كتابه المطبوع: الرد على ابن النغريلة. ينظر: مجموع رسائل ابن حزم ــ تحقيق الدكتور/ إحسان عباس ٩٨/٣، حيث كشف عن جهل ابن النغريلة وتطاوله وطغيانه، وأتى على كل ترهاته .

وتابع يوسف دسائس أبيه السرية، ولكنه لبطر فيه، وشر تورط فى قتل بلقين بن باديس، وألصق التهمة بعدد من رجال الحاشية ... كل ذلك أورثه غضب الناس، وحنقهم عليه، وكان على رأس الناقمين على تسلط هذا الوزير السيىء الفقيه الأديب أبوإسحاق الإلبيرى، فقد فعلت قصيدته فى الناس فعل النار فى الهشيم، ورددتها الألسنة، وتناقلتها الأسماع، وحفظتها ووعتها الصدور٠

يقول لسان الدين بن الخطيب: "وحفظت القصيدة المنسوبة إلى الولى العابد أبى إسحاق الإلبيرى ــ ﷺ ــ التى يقول فيها مخاطبا باديس، ومحرضا على اليهودى .. ألا قل لصنهاجة .. الأبيات"٠

وانتهى أمر يوسف بأن قتلته العامة فى ثورتها العارمة وتخلص الناس من مكايده، وفساده، وتخريبه"[1]٠

(١) تنظر هذه الأخبار والسير فى: ديوان أبىإسحاق الإلبيرى ــ تحقيق د/محمد رضوان الداية صـ٥ ــ ١٨ ط دار الفكر المعاصر ــ بيروت ــ لبنان، ط دار الفكر ــ دمشق سورية ــ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ــ ١٩٩١م ، وينظر أيضا: الإحاطة فى أخبار غرناطة: لسان الدين بن الخطيب ــ تحقيق د/ محمد عبدالله عنان ٤٤٨/١ ــ مكتبة الخانجى ــ القاهرة ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م٠

الفصل الأول
من معالم التجربة الإبداعية فى القصيدة

ويتضمن النقاط التالية:

أ ـ القصيدة النونية ـ النص واللغة.

ب ـ مناسبة القصيدة، وقيمتها، وأثرها فى عصرها.

جـ ـ الأفكار العامة، والموضوعات الرئيسة فى القصيدة.

أ ـ القصيدة النونية[1] النص واللغة:

١ـ ألا قل لصنهاجة أجمعين .·. بدور الندى وأسد العرين[2]
٢ـ لقد زل سيدكم زلة .·. تقربها أعين الشامتين
٣ـ تخير كاتبه كافرا .·. ولو شاء كان من المسلمين
٤ـ فعز اليهود به وانتخوا .·. وتاهوا وكانوا من الأرذلين[3]
٥ـ ونالوا مناهم وجازوا المدى .·. فحان الهلاك وما يشعرون!
٦ـ فكم مسلم فاضل قانت .·. لأرذل قرد من المشركين!
٧ـ وما كان ذلك من سعيهم .·. ولكن منا يقوم المعين!
٨ـ فهلا اقتدى فيهم بالألى .·. من القادة الخيرة المتقين!
٩ـ وأنزلهم حيث يستاهلون .·. وردهم أسفل السافلين[4]
١٠ـ وطافوا لدينا بأخراجهم .·. عليهم صغار وذل وهون[5]

---

(١) تنظر أبيات هذه القصيدة بأسرها فى الديوان: (ديوان أبى إسحاق الإلبيرى ت٤٦٠هـ ـ تحقيق وشرح واستدراك فائتة د/ محمد رضوان الداية ـ صـ١٠٨ ـ ١١٢ ـ ط دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان ـ دار الفكر ـ دمشق سورية ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

(٢) صنهاجة: جيل ضخم من البربر من بطون البرانس، كان لهم شأن سياسى كبير فى المغرب والأندلس، وتفرع من صنهاجة فروع كثيرة قدرت بنحو سبعين بطنا، والندى: مجلس القوم ومتحدثهم ما داموا فيه ، والندى: تطلق على أهل المجلس.

(٣) انتخى: تفاخر وتعاظم.

(٤) يستاهلون: على تسهيل الهمزة .

(٥) الأخراج: جمع الخرج، أصله ما يخرج من الأرض،وجملة معناه: الغلة،ثم استعمل فى منافع الأملاك،وريع الأرض،وغلة العبيد والحيوانات،والخرج: الضريبة على الرؤوس،وعلى الدخل،والشاعر يشير إلى الآية الكريمة : ﴿ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾.

١١ـ وقمـوا المزابـل عـن خرقـة ∴ ملونـة لـدثار الـدفين[١]
١٢ـ ولم يسـتخفوا بأعلامنـا ∴ ولم يستطيلوا على الصالحين[٢]
١٣ـ ولا جالسـوهم ـ وهـم هجنـة ∴ ولا واكبـوهم مـع الأقـربين
١٤ـ أبـاديس أنـت امـرؤ حـاذق ∴ تصـيب بظنـك نفـس اليقين
١٥ـ فكيـف اختفـت عنـك أعيـانهم ∴ وفى الأرض تضرب منها القرون؟!
١٦ـ وكيـف تحـب فـراخ الزنـا ∴ وهـم يغضـوك إلى العـالمين؟![٣]
١٧ـ وكيـف يـتم لـك المرتقـى ∴ إذا كنـت تبنـى وهـم يهـدمون؟!
١٨ـ وكيـف اسـتنمت إلى فاسـق ∴ وقارنته ـ وهو بيس القـرين؟![٤]
١٩ـ وقـد أنـزل الله فـى وحيـه ∴ يحـذر مـن صـحبة الفاسـقين
٢٠ـ فـلا تتخـذ مـنهم خادمـا ∴ وذرهـم إلى لعنـة اللاعـنين
٢١ـ فقـد ضـجت الأرض مـن فسـقهم ∴ وكـادت تميـد بنـا أجمعـين
٢٢ـ تأمـل بعينيـك أقطارهـا ∴ تجـدهم كلابـا بهـا خاسـئين
٢٣ـ وكيـف انفـردت بتقـريبهم ∴ وهـم فـى البلاد مـن المبعـدين
٢٤ـ علـى أنـك الملـك المرتضـى ∴ سـليل الملـوك مـن الماجـدين
٢٥ـ وأن لـك السـبق بـين الـورى ∴ كمـا أنـت مـن جلـة السـابقين
٢٦ـ وإنـى احتللـت بغرناطـة ∴ فكنـت أراهـم بهـا عـابثين[٥]
٢٧ـ وقـد قسـموها وأعمالهـا ∴ فمـنهم بكـل مكـان لعـين
٢٨ـ وهـم يقبضـون جباياتهـا ∴ وهـم يخضـمون وهـم يقضـمون[٦]
٢٩ـ وهـم يلبسـون رفيـع الكسـا ∴ وأنـتم لأوضـعها لابسـون![٧]

(١) قم البيت : كنسه ٠
(٢) الأعلام: جمع علم، والعلم: سيد القوم، والمقصود: أعلام المسلمين الذين تعرضوا للاستخفاف من ابن النغريلة ورهطه ٠
(٣) الفراخ: جمع الفرخ، وهو: ولد الزنا ٠
(٤) استنام لكذا : سكن إليه سكون النائم، وقولـه بـيس : أى بـئس، سهلت الهمزة٠
(٥) احتللت بغرناطة: أى نزل فيها واتخذها دار إقامة بعد نزوحه عن إلبيرة ٠
(٦) الخضم: الأكل بأقصى الأضراس، والقضم: الأكل بأدناها، وفيهما كناية: عن الأكل الطيب الطرى، والأكل الجاسى من ذى التقشف٠
(٧) الكسا: جمع الكسوة بضم الكاف وكسرها: وهى اللباس٠

٣٠ـ وهم أمناكم على سركم ∴ وكيف يكون خؤون أمين؟![1]
٣١ـ ويأكل غيرهم درهما ∴ فيقصى ، ويدنون إذ يأكلون!
٣٢ـ وقد ناهضوكم إلى ربكم ∴ فما تمنعون ولا تنكرون!
٣٣ـ وقد لابسوكم بأسحارهم ∴ فما تسمعون ولا تبصرون!
٣٤ـ وهم يذبحون بأسواقها ∴ وأنتم لأطرافها آكلون!
٣٥ـ ورخم قردهم داره ∴ وأجرى إليها نمير العيون![2]
٣٦ـ فصارت حوائجنا عنده ∴ ونحن على بابه قائمون!
٣٧ـ ويضحك منا ومن ديننا ∴ فإنا إلى ربنا راجعون!
٣٨ـ ولو قلت في ماله إنه ∴ كما لك كنت من الصادقين
٣٩ـ فبادر إلى ذبحه قربة ∴ وضح به فهو كبش سمين![3]
٤٠ـ ولا ترفع الضغط عن رهطه ∴ فقد كنزوا كل علق ثمين[4]
٤١ـ وفرق عداهم وخذما لهم ∴ فأنت أحق بما يجمعون
٤٢ـ ولا تحسبن قتلهم غدرة ∴ بل الغدر في تركهم يعبثون
٤٣ـ وقد نكثوا عهدنا عندهم ∴ فكيف تلام على الناكثين؟!
٤٤ـ وكيف تكون لهم ذمة ∴ ونحن خمول وهم ظاهرون؟!
٤٥ـ ونحن الأذلة من بينهم ∴ كأنا أسأنا وهم محسنون!!
٤٦ـ فلا ترض فينا بأفعالهم ∴ فأنت رهين بما يفعلون
٤٧ـ وراقب إلهك في حزبه ∴ فحزب الإله هم الغالبون

(١) أمناكم أى: أمناؤكم.
(٢) رخم الدار: جعلها من الرخام، وما يشبهه مما يزين به، وتكثر نفقته .
(٣) أفاد الشاعر فى هذا البيت من معنى التضحية اللغوى والشرعى.
(٤) العلق : النفيس .

ب ـ مناسبة القصيدة، وقيمتها، وأثرها فى عصرها:

أولا : مناسبة القصيدة:

كان اليهود يمثلون فئة من فئات المجتمع الأندلسى، ويشكلون عنصرا من عناصره ... وكانوا فى البداية يعملون فى مهن عادية يعيشون بها، وظلوا على هذه الحال بعيدين عن تقلد مناصب الدولة الرسمية ــ إلى أن حدث انقلاب كبير فى عصر ملوك الطوائف ٤٢٢ ــ ٤٩٣هـ ، حيث ارتفع شأن اليهود، وقويت شوكتهم، وذلك بعد أن استوزرهم بنوزيرى[١] فى حكمهم، فغدوا يسيطرون على مقاليد الأمور فى الأندلس، ففى عهد حبوس بن ماكسن ــ الذى تولى إمارة غرناطة فى الفترة من ٤١٠ ــ ٤٢٩هـ، حيث استوزر صمويل بن النغريلة اليهودى ... وقد تولى الوزارة من بعده ابنه يوسف بن صمويل لباديس بن حبوس ــ الذى تولى فى الفترة من ٤٢٩ ــ ٤٦٥هـ، وقد ضاق الفقهاء والعلماء بذلك، وسخطوا وغضبوا غضبا شديدا ؛ لأن هذا اليهودى الأخير جعل اليهود يسيطرون على مرافق الدولة، وأعيان الناس ضائقون من وجود يهودى على رأس الحكومة"[٢].

(١) بنوزيرى: قوم من بربر صنهاجة ــ أولئك الذين وجهت إليهم القصيدة النونية، وقد كان من بين من أسس هذه الإمارة (أعنى بنىزيرى) : حبوس بن ماكس وولده باديس بن حبوس .

(٢) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ــ د/ الطاهر أحمد مكى صـ٦٣ بتصرف ــ ط دار المعارف ــ الطبعة الثالثة ــ ١٩٨٧م، وينظر فى ذلك بالتفصيل: الإحاطة فى أخبار غرناطة ــ لسان الدين بن الخطيب ١/ ٣٩، ٤٠ .

ولم يكتف هذا اليهودى الصاغر بذلك، بل إنه أراد أن يسلم إمارة غرناطة[١] لأمير المرية[٢]، ويخون سيده، ولم يقف عند هذا الحد، بل أخذ يطعن فى كل الملل والأديان، ويركز مطاعنه فى الإسلام، ويسخر من مبادئه، ويزعم أنه قادر على أن يجئ بقرآن مثله"[٣].

مما أثار حفيظة العلماء، وأوقد نار الغضب والحمية، وأذكاها فى صدورهم، فوقفوا جميعا موقفا صلبا، تصدوا فيه لهذا الدعي الأفاق، وكان من بين هؤلاء العلماء العالم الشاعر أبوإسحاق الإلبيرى ــ حيث حرك ذلك الحادث العجيب فى نفسه ينابيع الشعر، فنظم فى ذلك قصيدة ثائرة، طال نفسه فيها، تتضمن كلمات رنانة، وعبارات طنانة، أرسل بها إلى هذا اليهودى واقفا من خلالها فى وجهه ومن على شاكلته من اليهود، ومعرضا بهم، وكاشفا عن خباياهم، ومقدما فى الوقت ذاته بين يدى الأمير المسلم ــ ولى أمر المسلمين هناك ــ ما عليه من واجب النصح والتوجيه والإرشاد بعدما أقدم على ما أقدم عليه، فزل وهوى! مبينا له وجه الحق ــ مؤديا بذلك دوره، وواجبه المنتظر منه بصفته عالما يهدى الناس بإذن ربهم، ولما عرف عنه من الصلاح والورع ، والالتزام بمنهج يصلح من خلاله ما فسد، ويقوم ما اعوج ٠

---

(١) غرناطة ــ بفتح أوله وسكون ثانيه ــ رمانة بلسان عجم الأندلس، وهى: أقدم مدن كورة إلبيرة، من أعمال الأندلس، وأعظمها، وأحسنها، وأحصنها ــ معجم البلدان: للشيخ شهاب الدين أبىعبدالله ياقوت الحموى ٤/ ١٩٥ ط دار إحياء التراث العربى ــ بيروت٠

(٢) المرية: ــ بالفتح ثم الكسر وتشديد الياء ــ هى : مدينة كبيرة من كورة إلبيرة من أعمال الأندلس ــ معجم البلدان ٤/ ١١٩ ٠

(٣) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة تحرير وترجمة د/الطاهر أحمد مكى صـ٦٣ ــ بتصرف٠

ثانيا : قيمة القصيدة، وأثرها فى عصرها:

كانت هذه القصيدة ــ بحق ــ موضع إشادة الأدباء والمؤرخين العرب، بل والمستشرقين منهم، ومحل إعجابهم وتقديرهم، مما دفعهم إلى أن ينوهوا بأثرها البارز، ودورها الإيجابى الكبير فى الأوساط السياسية فى الأندلس آنئذ.

حيث نلتقى بواحد من الباحثين البارزين فى أدب العرب فى الأندلس ــ هو الدكتور الطاهر أحمد مكى ــ نلتقى به وهو يشيد بقدر هذه القصيدة، وينوه بأثرها العظيم، وخطرها الكبير فى مجرى أحداث المجتمع الأندلسى فى وقتها، مكثرا من الإشادة بها، ملحا فى ذلك .. يقول: "والحق أن قصيدة أبىإسحاق كانت سببا بين أسباب أخرى كثيرة تجمعت لتؤدى إلى الثورة، ولعلها ــ إذا شئت ــ كانت من أقوى هذه الأسباب فيما يتصل بتحريض الجماهير، والدعاية ضد الوزير، وهى على التأكيد السبب المباشر الذى أشعل النار فى الحطيم، وهى بهذا تكون قد حققت انتصارا ساحقا فى ذلك الحين"(١).

ويؤكد ذلكم الباحث كلامه فى الإشادة بقدر تلك القصيدة، والتنويه بخطرها وأثرها الكبير، فيقول فى موضع آخر: "لقد أشعل أبوإسحاق أوساط غرناطة نارا متأججة فى قلوب المسلمين نحو اليهود بقصيدة عظيمة ، دخلت ودخل معها التاريخ من أوسع باب"(٢).

ولنا أن نقف على هذا الكلام الذى أورده أحد المستشرقين الإسبانيين وهو ــ إميليوغرسيه غومث ــ وفيه يشيد بتلك القصيدة وينوه بأثرها وخطرها آنئذ، حيث يقول: "تنهض شهرة أبىإسحاق

(١) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ــ تحرير وترجمة د/الطاهر أحمد مكى صـ٧٦ .
(٢) المرجع السابق ــ صـ٧٠ .

بين المسلمين على أعماله الزهدية بخاصة، ولكن شهرته بين الأوربيين تعود فى المقام الأول إلى قصيدته التى توجه بها إلى بربر صنهاجة يحرضهم على اليهودى يوسف بن النغريلة وزير الملك ابن باديس ... والحق أن القصيدة تستحق ما حظيت به من شهرة، ولا نعرف إلا فى القليل النادر أن أبياتا من الشعر لعبت دورا سياسيا مباشرا فى التاريخ السياسى لأمة من الأمم، فكهربت العزائم، ودفعت بها فى سرعة خاطفة إلى إشعال الحرائق، وشحذت السيوف للقتل كالدور الذى لعبته هذه القصيدة، حيث استطاع الإلبيرى بها أن يلهب غرناطة، وأصبح جديرا بأن يحتل مكانه فى الصف الأول من الشعراء فى عصره"(١).

أثر النونية فى عصرها:

هذا عن قيمة النونية وقدرها، أما عن أثرها فى الأوساط الأندلسية فى عصرها فهذا ما تؤكده المصادر الأدبية والتاريخية الأندلسية، حيث تشير إلى ما لهذه القصيدة من أثر بارز، ودور خطير فى الحياة الأندلسية فى ذلك الوقت .. فقد آتت الثمرة المرجوة منها، وحققت الآمال المعقودة عليها ، حيث فجرت كوامن الغيظ والحنق فى نفوس أهل غرناطة على الوزير اليهودى: "فراحوا إلى دار اليهودى مع العامة، فدخلوا عليه فأخفى وسود وجهه يروم التنكير فقتلوه لما عرفوه، وصلبوه على باب مدينة غرناطة"(٢) .

فلسان الدين بن الخطيب ت ٧٧٦هـ يجعل ـ كما نرى ـ من هذه القصيدة سببا مباشرا فى الثورة على الوزير اليهودى، والانتقام

(١) مع شعراء الأندلس والمتنبى ـ سير ودراسات: إميليو غرسية غومث ـ تعريب وترجمة د/ الطاهر أحمد مكى ـ صـ٩٧ ، ١٠٨ ط دار المعارف ـ الطبعة السادسة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٦م.
(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١/ ٤٤٠ .

منه، ونراه يؤكد كلامه هذا فى موضع آخر حيث يقول: "وكان مهلك هذا اليهودى بسبب شعر حفظ عنه، يحرض صنهاجة عليه"(١).

وهكذا كانت هذه القصيدة بمثابة الثقاب الذى أشعل النار، وأوقدها فى نفوس البربر وغيرهم، بعدما حملت الريح أبيات أبىإسحاق إليهم، فعكفوا ينسخونها، وينشدونها، ويترنمون بها، ويتحينون الفرصة ليجعلوا من أفكارها واقعا وقد كان، فبعدما ظفروا بالوزير اليهودى وقتلوه، هموا متدفقين من كل مكان ــ بإشهار السيوف فى وجه كل يهودى، ناهبين متاجرهم، مشعلين النار فى بيوتهم، وقتل فى هذا اليوم ما يقرب من أربعة آلاف يهودى، ومن نجا من الموت من اليهود فقد رحل عن غرناطة، ولم تقم لهم فى هذه المدينة بعد ذلك قائمة(٢) .

جـ ـ الأفكار العامة، والموضوعات الرئيسة فى القصيدة "إيضاح وتفصيل" :

قبل الشروع فى إيضاح الأفكار العامة فى القصيدة أشير إلى أن محقق وشارح الديوان الدكتور رضوان الداية قد قدم بين يديها بهذه الكلمات: وقال ــ رحمه الله ــ يعنى: أبا إسحاق الإلبيرى، يخاطب صنهاجة، إذ كان اليهودى النغرالى ــ لعنه الله ــ وزيرا، وكاتبا لباديس بن حبوس ــ صاحب غرناطة.

والآن نحيا مع القصيدة معانى وأفكارا.

بداية أقول إن أبا إسحاق قد توجه بقصيدته هذه إلى كل القوى والعناصر التى يتكون منها المجتمع الغرناطى آنئذ، ممثلة فى بربر

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ١/ ٤٤٨ .
(٢) ينظر فى ذلك: المصدر السابق ، والموضع نفسه.

صنهاجة ــ والأمير واحد منهم ــ ، وجنود الجيش، ثم عامة المسلمين ــ على اختلاف أجناسهم فى ذلك المجتمع الغرناطى.

وقد آثر الإلبيرى أن يستهل قصيدته بحديث إلى البربر ــ بربر صنهاجة ــ أولئك الحانقون على اليهود، والمبغضون لأفعالهم ــ، وهو يخاطبهم بحديث من القلب، مطريا إياهم ومادحا، حيث يشهدهم جميعا ــ وهم الأجواد الشجعان، والفرسان الرهبان على أن سيدهم ــ أمير غرناطة ــ قد ارتكب خطأ فادحا، ووقع فى جرم كبير بعدما تخير وزيره كافرا، ولم يكرهه أحد على ذلك ، حيث إنه يوجد فى المسلمين أكفاء لهذا المنصب، وأهل للاضطلاع به، ويمكنه أن يتكئ عليهم بدلا من هذا التصرف المشين، والمسلك المعيب الذى عز به اليهود وتاهوا، ومكن لهم به فى الأرض فذل لهم المسلمون، وهانوا عليهم، ومن أسف!! يحدث هذا غفلة من المسلمين بلا سعى من اليهود ولا إرادة .. يقول أبوإسحاق الإلبيرى:

ألا قل لصنهاجة أجمعين ∴ بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة ∴ تقربها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ∴ ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به وانتخوا ∴ وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى ∴ فحان الهلاك وما يشعرون!
فكم مسلم فاضل قانت ∴ لأرذل قرد من المشركين!
وما كان ذلك من سعيهم ∴ ولكن منا يقوم المعين!

وما زال الكلام موجها للبربر عامة ــ وأميرهم خاصة ــ حيث نرى أبا إسحاق الإلبيرى عبر أبياته التالية يتساءل منكرا على الأمير: أما كان أجدر به، وخيرا له أن يعامل اليهود مثلما كان يعاملهم به الأمراء قبله، وينزلهم حيث كانوا ينزلونهم؟! فيعود بهم حيث يستحقون من الضعة والذلة والصغار، وأن يحال بينهم وبين أن يحيوا حياة كريمة، حيث يبحثون حول المزابل عن بقايا خرق

يصنعون منها أكفانا لموتاهم، ساعتئذ لا يستخفون ـ بأعلام المسلمين، ولن يطاولوا أعيانهم، ولن يجالسوهم .. يقول أبوإسحاق الألبيرى:

فهلا اقتدى فيهم بالألى ∴ من القادة الخيرة المتقين!
وأنزلهم حيث يستاهلون ∴ وردهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا بأخراجهم ∴ عليهم صغار وذل وهون
وقموا المزابل عن خرقة ∴ ملونة لدثار الدفين
ولم يستخفوا بأعلامنا ∴ ولم يستطيلوا على الصالحين
ولا جالسوهم ـ وهم هجنة ∴ ولا واكبوهم مع الأقربين

وفى محاولة جادة من الإلبيرى فى عرض قضيته، وبسط جزئياتها نراه بعد ذلك ينادى باديس بن حبوس ـ ذلك الأمير الغرناطى ـ مصدر طغيان اليهود، وسبب تمكينهم ـ خاصا إياه بالحديث، وقد مزج فى حديثه إليه بين مدحه وإطرائه، وبين لومه وعتابه .. أما مدحه إياه فيتمثل فى وصفه بالذكاء والحذق والقدرة البصيرة على النفاذ إلى بواطن الأمور وحقائق الأشياء ، بما يتسم به من سداد عقل، وحكمة، وبعد نظر، وأنه سليل ملوك كرام ينحدر من أصول عتيقة فى الكرم والشرف ... وأما لومه وعتابه ـ والذى مسه فى رفق وأناة يتوافق مع موقعه ـ فيتمثل فى سؤاله إياه متعجبا ـ كيف خفى عليه حال اليهود؟! وكيف غابت عنه حقيقتهم؟! وكيف به يواليهم ويقربهم فيصبحوا ـ وهم أولاد القردة والخنازير ممكنين ، مستأثرين به!! فى الوقت الذى يلاقى منه أمثالهم فى مواقع أخرى الذل والصغار ، مما أورثه بغض المسلمين، وكراهيتهم إياه، وحال بينه وبين الرقى والازدهار والتمكين:

أباديس أنت امرؤ حاذق ∴ تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم ∴ وفى الأرض تضرب منها القرون؟!
وكيف تحب فراخ الزنا ∴ وهم بغضوك إلى العالمين؟!
وكيف يتم لك المرتقى ∴ إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟!

وكيف استنمت إلى فاسق ∴ وقارنته ـ وهو بيس القرين؟!
وقد أنزل الله فى وحيه ∴ يحذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادما ∴ وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم ∴ وكادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها ∴ تجدهم كلابا بها خاسئين
وكيف انفردت بتقريبهم ∴ وهم فى البلاد من المبعدين
على أنك الملك المرتضى ∴ سليل الملوك من الماجدين
وأن لك السبق بين الورى ∴ كما أنت من جلة السابقين

وبعد حديث الشاعر الذى وجه به إلى أمير غرناطة راح يثير نفوس العامة، ويهيئها نحو التمرد والرفض، وسبيله فى هذا وصف حال اليهود، وبسط القول فيما وجدهم عليه حين نزل بغرناطة، حيث يشير إلى تقسيم المناصب بينهم، وتوليهم جباية الضرائب ، ولبسهم أفخر الثياب ، فى حين يلبس غيرهم من المسلمين رثها ومهلهلها، وعندهم ــ أى اليهود ــ وهم الخونة الغادرون ــ تنتهى أسرار البلاد والعباد، وكان إذا سرق غيرهم درهما عوقب عليه، أما هم فيزيدهم سرقتهم الأموال الطائلة من الأمير قربا، ومن السلطة تمكينا:

وإنى احتللت بغرناطة ∴ فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ∴ فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها ∴ وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا ∴ وأنتم لأوضعها لابسون!
وهم أمناكم على سركم ∴ وكيف يكون خؤون أمين؟!
ويأكل غيرهم درهما ∴ فيقصى ، ويدنون إذ يأكلون!

ثم يئوب الإلبيرى ثانية لخطاب الأمير ، حيث يحدثه بحديث يعزف فيه على وتر الدين، مشيرا من خلاله إلى ما اتبعه اليهود من وسائل للسيطرة عليه، فقد أغرقوه فى المتع والملذات حتى غدا لا يسمع ولا يبصر، غير منكر ذلك عليهم :

وقد ناهضوكم إلى ربكم ∴ فما تمنعون ولا تنكرون!
وقد لابسوكم بأسحارهم ∴ فما تسمعون ولا تبصرون!

ويتجاوز أبوإسحاق الإلبيرى فى حديثه إلى الأمير الغرناطى جانب الدين إلى ما يمس شخصه، ويخص ذاته، مثيرا فيه روح الغيرة والحمية والإباء والأنفة والغضب إزاء اليهود، بعدما رآهم يأكلون أجود ما فى غرناطة، وقد شاهد قصر وزيرهم ــ وهو يطاول قصر الأمير فخامة وأبهة .. والمسلمون واقفون ببابه ينتظرون قضاء مصالحهم، وهو ــ أى الوزير اليهودى ــ يسخر منهم، ويهزئ، وينتقص من دينهم:

وهم يذبحون بأسواقها ∴ وأنتم لأطرافها آكلون!
ورخم قردهم داره ∴ وأجرى إليها نمير العيون!
فصارت حوائجنا عنده ∴ ونحن على بابه قائمون!
ويضحك منا ومن ديننا ∴ فإنا إلى ربنا راجعون!

ثم يهيب الإلبيرى بأميره ــ وقد حرك فى داخله مزيدا من مشاعر الرفض والإباء إزاء اليهود، وذلك من خلال إثارة الرغبة فيه إلى مزيد من الثراء، ودعوته إياه إلى أخذ أموالهم فهو أحق بها، وكذا فى دعوته إياه لذبحهم والقضاء عليهم:

ولو قلت فى ماله إنه ∴ كما لك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربة ∴ وضح به فهو كبش سمين!
ولا ترفع الضغط عن رهطه ∴ فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عداهم وخذما لهم ∴ فأنت أحق بما يجمعون

ويقدم أبوإسحاق الإلبيرى ــ وهو العالم الفقيه بين يدى الأمير ــ تبريرا خلقيا، ومسوغا فقهيا فى إباحة قتل هؤلاء اليهود، بعدما نكثوا العهد، وخانوا الأمانة، وتجاوزوا حد الذمة، واعتدوا على ما ليس لهم، بادئين بالعدوان، فليس فى قتلهم إذن أى غدر، ولا نكث للعهد:

ولا تحسبن قتلهم غدرة ∴ بل الغدر فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم ∴ فكيف تلام على الناكثين؟!
وكيف تكون لهم ذمة ∴ ونحن خمول وهم ظاهرون؟!

ونحـــن الأذلـــة مـــن بيـــنهم ∴ كأنـــا أســـأنا وهـــم محســـنون!!

حتى إذا ما شعر الإلبيرى برضا وقناعة فى أنه قد انتهى مـــن عرض قضيته، وبعد أن فرغ من بسط جزئياتها ــ بكل تفاصـــيلها ــ نراه يختم قصيدته بختام يتسم بالبشر والإيجابية، ملوحا من خلالـــه بالفوز، وموقنا بالنصر لجند الله سبحانه:

وراقـــب إلهـــك فـــى حزبـــه ∴ فحـــزب الإلـــه هـــم الغـــالبون

وكأنى بالشاعر فى ختامه هذا يؤكد أن النصـــر والظفـــر فـــى النهاية للمسلمين، وأنه إذا كان قد تحقق لليهـــود العـــز والتمكـــين والسيادة على المسلمين بهذا التصرف المشين من الأمير المسلم فإن النصر والسيادة حتما ستؤول إلى جند الله، والعزة تكون لهـــم ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾(١)، ﴿أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾(٢).

(١) من الآية ٨ من سورة المنافقون.
(٢) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة.

الفصل الثانى
السمات الفنية للقصيدة

يطيب لى بعد أن وقفت على ما تضمنته هذه القصيدة من معان، وما احتوت عليه من أفكار جادت بها قريحة صاحبها، ولهج بها لسانه، معبرا فى ذلك عن موقفه الثائر، ورأيه الرافض إزاء ما حدث، ومصورا ما يعتمله من مشاعر الرفض والإباء والكره والسخط .. يطيب لى بعد ذلك أن أدخل عالم القصيدة الفنى، حيث الآفاق الفنية والجمالية التى تحلق فيها، متمثلة فى مجموعة لبنات تكون فى مجملها البناء الفنى للنص مكتملا، حيث يتكون من النقاط التالية:

أولا : بناء القصيدة ٠
ثانيا : الألفاظ والأساليب٠
ثالثا : الصورة الفنية ٠
رابعا : العاطفة ٠
خامسا : الموسيقى ٠

وهاكم الحديث عن كل جزئية من تلكم الجزئيات بشىء من الإيضاح والتفصيل٠

أولا: بناء القصيدة:

الحديث عن بناء القصيدة النونية ينتظم فى فكرتين رئيسيتين:
الأولى: وحدة القصيدة ٠
الثانية: عناصر وأجزاء القصيدة ٠

وفى السطور التالية سأتناول هاتين الفكرتين مفصلا القول فى ذلك ، ومطبقا على القصيدة٠

الأولى: وحدة القصيدة :

حتى يؤتى النص الشعرى الثمرة المرجوة منه ــ بحيث يكون واضح المضمون ــ لابد فيه من أن يكون متماسك البنيان، متناسق الأجزاء، توصل كل فكرة "جزئية" فيه إلى الأخرى، ويمسك كل مضمون فيه بيد الآخر، فكلما كان النص الشعرى ذا موضوع واحد، وأفكار منتظمة كلما كان عظيم النفع، جم الفائدة، يرجى له التأثير فى المتلقين ... ولا يؤتى النص الأدبى ــ بالضرورة ــ الثمرة المرجوة منه من الفائدة والتأثير إذا ما تضمن عدة موضوعات دون أن يكون هناك ترابط وجدانى بينها ... ونظرا للأهمية الكبيرة لتلك الوحدة فى النص الشعرى، فلم يغفل النقاد العرب ــ القدامى منهم والمحدثون عن الإشارة إلى ضرورة توفر تلك الوحدة فى القصيدة، انطلاقا من نظرتهم إلى النص الشعرى على أنه بنيان متكامل، وأجزاء مترابطة ومعان متماسكة[1].

والناظر فى القصيدة النونية يجدها واحدة من القصائد الوجدانية الغنائية التى تخرج عن إطار الشعر التمثيلى القصصى، ولذا فقد بات من الصعب العسير أن تتحقق فيها الوحدة العضوية بمعناها الحرفى، بحيث يمكن تقديم بيت فيها على آخر، أو يحذف بيت منها دون أن يختل المضمون، ويفسد المعنى، وإن كان هذا لا ينفى ما بين أفكارها جميعا من ترابط وجدانى، وتلاحم عضوى؛ لما

---

(١) ينظر فى ذلك : البيان والتبيين للجاحظ ٢/ ٤٩، ٥٠ ــ تحقيق فوزى عطوى ــ ط شركة الكتاب اللبنانى ــ بيروت ١٩٦٨م، الشعر والشعراء : ابن قتيبة ١/ ٩٠، تحقيق أحمد محمد شاكر ــ ط دار المعارف د.ت، العمدة فى محاسن الشعر ونقده ــ ابن رشيق القيروانى ٢/٩١ ط بيروت ــ ط الخامسة ١٩٨١م، والديوان، لمؤلفيه: العقاد، والمازنى صـ١٣٠ ط الثالثة ــ ط دار الشعب د.ت ... وغير ذلك .

تقوم عليه من الصدق والقوة، وتصوير مشاعر وانفعالات واحدة متصلة مترابطة لا تباين بينها فى القوة والضعف ... فمن يتأمل أبيات النونية جميعا يجد أن بها خيطا شعوريا واحدا من أول بيت فيها وحتى آخر بيت، حيث تضمنت القصيدة ـ كما نرى ـ هذه الأفكار الجزئية، وتلك المعانى الفرعية التى تندرج جميعا تحت الغرض الرئيس، والموضوع الأساس ، تلكم الأفكار هى:

أ – نداء الشاعر وصراخه فى بربر صنهاجة ينبههم إلى خطأ أميرهم فيما أقدم عليه حين اتخذ وزيرا يهوديا تحت إمرته، وأثر ذلك فى الواقع السياسى آنئذ، وتلك الفكرة تنطق بها الأبيات من ١ ـ ٧ حيث يقول أبوإسحاق الإلبيرى:

ألا قل لصنهاجة أجمعين ∴ بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة ∴ تقربها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ∴ ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به واتخوا ∴ وتاهوا وكانوا من الأرذلين
ونالوا مناهم وجازوا المدى ∴ فحان الهلاك وما يشعرون!
فكم مسلم فاضل قانت ∴ لأرذل قرد من المشركين!
وما كان ذلك من سعيهم ∴ ولكن منا يقوم المعين!

ب – ثم ينتقل الشاعر ـ بعد ذلك إلى فكرة جزئية جديدة تمسك بتلاليب الأخرى، تلكم هى: عتابه الأمير، ولومه إياه فيما وقع فيه، وكشفه بين يديه لما كان قد خفى عليه، وتوجيهه إلى الرشاد والصواب كى ينقذ ما ضاع، ويدرك ما فات، مخاطبا فيه جانب الدين الحنيف، ومستحثا إياه أن ينزل على هديه الراشد، وتعاليمه السديدة لاسيما وهو ـ أى الأمير ـ ينحدر من أصول كريمة، وجذور عريقة، فليبادر إذن بدفع هذه الفعلة المشينة عنه، فيتأكد له بذلك السبق والريادة بين العالمين ... وتبدو هذه المعانى متحققة فى قول الإلبيري:

فهلا اقتدى فيهم بالألى ∴ من القادة الخيرة المتقين!
وأنزلهم حيث يستاهلون ∴ وردهم أسفل السافلين
وطافوا لدينا بأخراجهم ∴ عليهم صغار وذل وهون
وقموا المزابل عن خرقة ∴ ملونة لدثار الدفين
ولم يستخفوا بأعلامنا ∴ ولم يستطيلوا على الصالحين
ولا جالسوهم ـ وهم هجنة ∴ ولا واكبوهم مع الأقربين
أباديس أنت امرؤ حاذق ∴ تصيب بظنك نفس اليقين
فكيف اختفت عنك أعيانهم ∴ وفى الأرض تضرب منها القرون؟!
وكيف تحب فراخ الزنا ∴ وهم بغضوك إلى العالمين؟!
وكيف يتم لك المرتقى ∴ إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟!
وكيف استنمت إلى فاسق ∴ وقارنته ـ وهو بيس القرين؟!
وقد أنزل الله فى وحيه ∴ يحذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادما ∴ وذرهم إلى لعنة اللاعنين
فقد ضجت الأرض من فسقهم ∴ وكادت تميد بنا أجمعين
تأمل بعينيك أقطارها ∴ تجدهم كلابا بها خاسئين
وكيف انفردت بتقريبهم ∴ وهم فى البلاد من المبعدين
على أنك الملك المرتضى ∴ سليل الملوك من الماجدين
وأن لك السبق بين الورى ∴ كما أنت من جلة السابقين

جـ - ثم يلح الشاعر ـ بعد ذلك جاهدا ـ على تصوير واقع مجتمع غرناطة بعد هذا التصرف المعيب، والسلوك العجيب من الأمير المسلم ... حيث يبرز أبوإسحاق ، ويجلى ما آل إليه حال اليهود الذين عزوا بعد ذل، وتاهوا بعد خزى، واغتنوا بعد فقر، ونعموا بعد حرمان، مجليا فى الوقت ذاته ما صار إليه حال المسلمين من الذلة والصغار، وما تجرعوه من كئوس المهانة والضياع ـ كما يبدو فى قول الشاعر:

وإنى احتللت بغرناطة ∴ فكنت أراهم بها عابثين
وقد قسموها وأعمالها ∴ فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جباياتها ∴ وهم يخضمون وهم يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا ∴ وأنتم لأوضعها لابسون!
وهم أمناكم على سركم ∴ وكيف يكون خؤون أمين؟!
ويأكل غيرهم درهما ∴ فيقصى ، ويدنون إذ يأكلون!

وقد ناهضوكم إلى ربكم ∴ فما تمنعون ولا تنكرون!
وقد لابسوكم بأسحارهم ∴ فما تسمعون ولا تبصرون!
وهم يذبحون بأسواقها ∴ وأنتم لأطرافها آكلون!
ورخم قردهم داره ∴ وأجرى إليها نمير العيون!
فصارت حوائجنا عنده ∴ ونحن على بابه قائمون!
ويضحك منا ومن ديننا ∴ فإنا إلى ربنا راجعون!

د - ثم يعود الشاعر ـ ثانية إلى الأمير، واقفا بين يديه موقف الناصح الأمين، مغلفا نصحه هذا ـ بالسخرية، والتهكم من شخص الوزير اليهودى، حيث أهاب بالأمير أن يذبح وزيره هذا قربة لله سبحانه، وأن يأخذ ماله ومال قومه، مشتتا بذلك شمل اليهود، ومفرقا جمعهم، غير مبال فى ذلك، ولا مكترث، ولا خائف من أن يقع بذلك فى ذنب أو إثم ... ففى ذلك الجزاء العادل، والفعل الحكيم، حيث إن فيه نصرا لحزب الله ـ الذين حتما هم الغالبون:

ولو قلت فى ماله إنه ∴ كما لك كنت من الصادقين
فبادر إلى ذبحه قربة ∴ وضح به فهو كبش سمين!
ولا ترفع الضغط عن رهطه ∴ فقد كنزوا كل علق ثمين
وفرق عداهم وخذما لهم ∴ فأنت أحق بما يجمعون
ولا تحسبن قتلهم غدرة ∴ بل الغدر فى تركهم يعبثون
وقد نكثوا عهدنا عندهم ∴ فكيف تلام على الناكثين؟!
وكيف تكون لهم ذمة ∴ ونحن خمول وهم ظاهرون؟!
ونحن الأذلة من بينهم ∴ كأنا أسأنا وهم محسنون!!
فلا ترض فينا بأفعالهم ∴ فأنت رهين بما يفعلون
وراقب إلهك فى حزبه ∴ فحزب الإله هم الغالبون

وهكذا ـ وكما نرى ـ فإن هذه القصيدة النونية ـ وإن تعددت أفكارها، وتنوعت مضامينها، إلا أنها تنتظم جميعا فى سلك واحد، حيث تعالج غرضا رئيسا ـ هو التحريض على اليهود، ممثلين فى وزيرهم، وكشف طبيعتهم، والتحذير من حقيقتهم، ودعوة بربر صنهاجة إلى الوقوف فى وجه اليهود، وإبداء مشاعر الغضب والسخط إزاء ما حدث.

وهذا الترابط الوجدانى يتضح ــ بجلاء ــ بين تلكم الأفكار التى تمثلها كل مجموعة من الأبيات المذكورة هنا ... فهى تعمل جميعا فى إيصال المضمون العام للمتلقين، والتأثير فيهم من خلالها، ومن ثم حثهم على الثأر والانتقام وقد كان، فلم يند فكر الشاعر، ولم يشرد ذهنه بعيدا، ولم يستطرد استطرادا يغيب فيه المقصود عن المتلقى، حيث لا يشعر بالبعد والقطيعة بين الفكرة والفكرة؛ وذلك لأنه ــ أى الشاعر ــ بصدد رسالة يصدع بتبليغها، ونصح يبديه، ورأى يجهر به.. فراحت لذلك كل فكرة توصل للأخرى، تأخذ بيدها، وتتضام معها فى إتمام المقصود، وإيصال الغاية من النص هنا.

هذا عن الوحدة العضوية فى النونية، أما عن الوحدة الموضوعية فيها فمن الطبعي ــ بعدما وجد بين أفكارها الجزئية هذا الترابط الوجدانى الشديد ــ طبعي أن تتحقق فيها وحدة الموضوع، من غير أن تتجاوزه إلى غيره.

الثانية: عناصر وأجزاء القصيدة:

لقد أولى نقاد العربية قديمهم وحديثهم الحديث عن بناء القصيدة من مطلع وتخلص وخاتمة، وعنوا بذلك عناية كبيرة؛ لما لذلك من أثر كبير، ودور بارز فى إكساب القصيدة صفات القوة والبراعة ... فقد جاء فى كتاب العمدة لابن رشيق ت٤٥٦هـ : "أنه قيل لبعض الحذاق بصناعة الشعر: لقد طار اسمك، واشتهر، فقال: لأنى أصبت المحز، وطبقت المفصل، وأصبت مقاتل الكلام، وقرطست نكت الأغراض بحسن الفواتح والخواتم، ولطف الخروج إلى المدح والهجاء .. وقد صدق ؛ لأن حسن الافتتاح داعية الانشراح، ومطية النجاح، ولطافة الخروج إلى الممدوح سبب إلى ارتياح الممدوح، وخاتمة الكلام فى السمع ألصق بالنفس؛ لقرب عهدها، فإن حسنت

حسن، وإن قبحت قبح، والأعمال بخواتيمها ــ كما قال رسول اللهﷺ"(١).

ترى هل تحقق فى القصيدة النونية ما نادى به النقاد، وما اشترطوا تحققه فى المطالع والتخلص والخواتيم؟ هذا السؤال هو ما ستجيب عنه السطور المقبلة ــ بإذن الله تعالى.

أما عن مطلع القصيدة النونية فأستطيع ــ بفضل الله سبحانه ــ أن أؤكد أن أبا إسحاق الإلبيرى قد أجاد فيه أيما إجادة، وأحسن أى إحسان! حيث توفر لمطلعه هنا من صفات القوة والحسن والجودة ما توفر! يقول الشاعر فى مستهل قصيدته:

ألا قل لصنهاجة أجمعين ∴ بدور الندى وأسد العرين
لقد زل سيدكم زلة ∴ تقربها أعين الشامتين

فلنا أن نتأمل افتتاحه الآسر هذا؛ بما تضمنه من ألفاظ فخمة وعبارات جزلة، وكلمات دالة، لاسيما تعبيره بـ"ألا" الاستفتاحية التى من شأنها أن تثير الانتباه، وتلفت الأنظار إلى أن الشاعر بصدد الحديث عن أمر ذى بال، وشىء جد خطير، يتضام معها كلمة : "قل" التى صاغها الإلبيرى فى صيغة الأمر ــ ذلك الذى يقتضى الوجوب والإلزام فلا مجال هنا للخيار فى عدم الاستماع للكلام، والإصغاء إليه، والإقبال عليه، وكذا تأكيده بلفظة "أجمعين" بجانب صنهاجة أولئك القوم الموجه إليهم هذا النداء، وتلك الصرخة المدوية، هذا بالإضافة إلى وصفه ــ أى الشاعر ــ صنهاجة بأوصاف من شأنها أن تحثهم على أن يبادروا بالإصغاء إلى ما سيلقيه الشاعر من كلام،

(١) العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده: ابن رشيق القيروانى ــ تحقيق محمد محيىالدين عبدالحميد ١/ ٢١٧ ط بيروت ــ الخامسة ١٩٨١م.

وتحملهم على متابعة كلامه بعد ذلك ــ والذى بدأ فى التعبير عنه فى البيت الثانى مباشرة٠

وكأنى بالإلبيرى ــ هنا ــ ومن خلال كلمات المطلع ــ يطمح إلى دعوة المتلقين إلى تتبع المعانى التى ستقع بعد ذلك، وحثهم على ترقبها، والوقوف عليها وإغرائهم بمتابعتها٠

وقد كان الشاعر موافقا فى مطلعه هذا لما اشترطه النقاد، وما تواضعوا عليه من مقاييس جودة وبراعة وقوة المطالع، حيث: "صدره ــ كما نرى ــ بما يكون فيه من تنبيه، وإيقاظ لنفس السامع، وأشرب بما يؤثر فيها انفعالا، ويثير لها حالا من تعجب أو تهويل أو تشويق [فكان بذلك] داعيا إلى الإصغاء والاستماع إلى ما بعده"(١)٠

كما أنه ــ أى الشاعر ــ كان مراعيا فى براعة استهلاله هنا تلك القاعدة البلاغية المشهورة: مطابقة الكلام لمقتضى الحال: التى طبقوها على المطلع، حين أرادوه متمشيا مع موضوع القصيدة، ومع من تقال فيه"(٢)٠

هذا بجانب دخول الشاعر هنا فى غرضه مباشرة دون أن يقدم بين يديه بمثل تلك المقدمات التقليدية الشائعة فى تراثنا العربى ... وهذا شىء طبعى هنا؛ لأن الشاعر بصدد تبليغ رسالة، وإبداء رأى،

---

(١) الصناعتين: لأبىهلال العسكرى صـ٤٥٧ ــ تحقيق على محمد البجاوى، محمد أبوالفضل إبراهيم ــ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ــ الطبعة الثانية ١٩٧٠م، وينظر بناء القصيدة فى النقد العربى القديم فى ضوء النقد الحديث د/ يوسف حسين بكار صـ٢٠٤ ط دار الأندلس ــ بيروت لبنان ط الثانية ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م٠

(٢) بناء القصيدة فى النقد العربى القديم ــ د/ يوسف حسين بكار صـ٢٠٥، وينظر: العمدة ٢/ ٢١٨ ٠

وإسداء نصح فى أمر ذى خطر كبير لا يتحمل أن يقدم عليه شىء آخر، ولا يناسبه ذلك .

ختام القصيدة:

لا يقل ختام القصيدة فى الأثر والأهمية بحال عن مفتتحها، يبدو هذا جليا من خلال طائفة من أقوال النقاد فى هذا الشأن ... فهذا أبوهلال العسكرى ت: ٣٩٥هـ يؤكد ما للختام من أثر بارز فى أداء المعنى، ودور كبير فى جودته، متضاما مع الافتتاح فى تحقيق صفات القوة والجودة فى القصيدة يقول: "الابتداء أول ما يقع فى السمع من كلامك، والمقطع آخر ما يبقى فى النفس، فينبغى أن يكونا مونقين"(١)، ويقول: "ينبغى أن يكون آخر بيت فى قصيدتك أجود بيت فيها، وأدخل فى المعنى"(٢) .

وإذا كان الإلبيرى قد أجاد وبرع فى استهلال قصيدته، فإنه أيضا قد أحسن وجود فى مختتمها، حيث يقول فيه مخاطبا الأمير:

وراقب إلهك فى حزبه ∴ فحزب الإله هم الغالبون

فلنا أن ننظر كيف ختم الإلبيرى قصيدته بهذا الختام المناسب لمضمونها الذى تسير فيه، ملوحا ــ من خلال كلماته الدالة المعبرة ــ بتحقق النصر والظفر للمسلمين ــ حتما ــ على أعدائهم، وذلك بعد أن يباشر الأمير أسباب النصر، ويتقى الله فى رعيته، نزولا على هدى قول الله سبحانه: ﴿ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(٣) .

(١) الصناعتين ــ ٤٥٥ .
(٢) المصدر السابق ٤٦٤ .
(٣) الآية ٥٦ من سورة المائدة.

وهذا الختام ــ بتلك الصورة ــ يشعر معه المتلقى بالقناعة التامة، وبأنه لم تعد هناك كلمات تقال بعد ذلك، بعد أن شفى الشاعر غلته، وأراح نفسه ٠

ثانيا : الألفاظ والأساليب :

تعد اللفظة الشعرية الأداة التى عن طريقها يخرج للمتلقى ما يمور بوجدان الشاعر، وما يدور فى داخله من مشاعر وأحاسيس وأفكار ... وهى ــ أى الكلمة الشعرية ــ من الأهمية بمكان فى النص الأدبى فهى: "أداة الأديب فى نقل أفكاره، ورسم صوره، وبناء موسيقاه، وهى الوعاء الذى يصب فيه الأديب ما تجيش به عاطفته من معان وخواطر وأحاسيس ومشاعر، وهى بالنسبة للأديب كالألوان للرسام، والحجر للمثال، ومن هذه الكلمة تتكون العبارة، وتتكون الصورة الأدبية، ويتخلق أسلوب الأديب الذى يعرف به، وينسب إليه، ومن الكلمة تتكون الموسيقى اللفظية فيما نقرؤه من شعر موزون، وفيما نتلوه من جمل لها توقيع منغوم"(١) ٠

وليست كل الألفاظ تحدث ذلك الأثر المنشود من إكساب العمل الفنى صفات الجودة والقوة والبراعة، وإنما الذى يحدث ذلك: اللفظة الموحية ، والكلمة المعبرة، حيث : "تكمن مهارة الشاعر فى استعماله اللفظة فى الشعر استعمالا شعريا دقيقا يدل على مهارة وفن، فعلى الشاعر أن يستخدم ألفاظا موحية؛ لأن الكلمة الموحية أهم عناصر الصياغة الشعرية"(٢) ٠

---

(١) فى ميزان النقد الأدبى : د/ طه مصطفى أبوكريشة صـ٢١ ط المليجى ١٩٦٧م٠

(٢) النقد الأدبى فى مذاهبه وقضاياه : د/ عبدالفتاح على عفيفى صـ٩٤ بتصرف ــ ط١٩٨٧م ٠

والناظر فى القصيدة النونية يلحظ أن الشاعر قد عنى عناية فائقة بألفاظه، وأولاها اهتماما كبيرا، وحاول جهده انتقاءها، فجاءت فى أكثر المواضع منسجمة مع حال الشاعر النفسية والشعورية، ناطقة بما يعتمل فى وجدانه، مصورة لما يمور فى داخله، وما يجيش فى صدره ٠

يبدو ذلك متحققا فى قول أبى إسحاق الإلبيرى يشير إلى ما وقع فيه الأمير من خطأ كبير حين اتخذ يهوديا وزيرا فى دولته، مبينا ما لهذا الفعل المقيت من أثر سلبى على واقع المسلمين آنئذ:

لقد زل سيدكم زلة ∴ تقربها أعين الشامتين
تخير كاتبه كافرا ∴ ولو شاء كان من المسلمين
فعز اليهود به واتخوا ∴ وتاهوا وكانوا من الأرذلين

فقد تضمنت هذه الأبيات ــ كما نرى ــ ألفاظا موحية، وكلمات دالة، ولبنات معبرة تنطق جميعا بالمضمون الذى يعالجه الشاعر، وتجسد كلها الموقف الذى هو بصدده، من حيث طبيعته، وأثره على الواقع السياسى فى الأندلس آنئذ ٠

ويطيب لى أن أقف مع هذه الكلمات وقفة تنبئ عن أثرها الكبير، ودورها البارز فى تجلية المعنى، وإبراز المقصود، وإتمامه هنا، ولنبدأ بكلمة "زل" حيث تشعرنا بالخطأ الفادح الذى وقع فيه الأمير، وهوى به وسقط، كما أنها تومئ بأن هذا التصرف منه إنما صدر هفوة وكبوة وزللا، مما نال من قدره ومكانته ٠

وتأتى الكلمة الثانية: "سيدكم" : أى سيد القوم، وأميرهم، وولى أمرهم ــ هو الذى وقع فى هذا الزلل، وصدر منه ذلك النزق ... مما يعد أمرا عظيما وشيئا كبيرا لا يتوافق بحال مع موقعه ... حيث

يشتم فى هذه اللفظة "سيدكم" رائحة التعريض بشخص الأمير، وفيها نقد شديد لتصرفه هذا !٠

ثم تأتى الكلمة الثالثة فى نفس هذا المضمار فتؤكد ما وقع فيه الأمير وهوى من خطأ ونزق، وما صدر عنه من تصرف جافى فيه الصواب، وجانب الاعتدال، حيث قول الإلبيرى: "زلة" تلك التى تقع مفعولا مطلقا للفعل الماضى: "زل" الذى سبق "بقد" المسبوقة باللام التى تفيد التحقق والتوكيد هنا ... دلالة فى ذلك كله على عظم وفداحة ما وقع فيه الأمير، وأنه أتى بشىء عظيم!٠

وهذه الزلة التى وقع فيها الأمير قد أدخلت السرور والهناءة على اليهود، وأقرت عيونهم، فراحوا يشمتون فى المسلمين، ويستهزئون بهم.. هذا المعنى هو ما تنطق به، وتوكده كلمتا: تقر ــ الشامتين ــ فى البيت الأول٠

ونلتقى بالشاعر فى بيته الثانى حيث كلمة: "تخير" ــ تلك التى أتت على وزن يدل على التعمل والقصد، حيث تنطق هنا بأن الأمير حين أقدم على فعلته هذه كانت لديه نية القصد والعزم فى ذلك، ولو شاء لاستعمل فى إمارته واحدا من المسلمين!٠

وتقع عيوننا بعد ذلك على كلمات البيت الثالث فنجدها فى غاية الدلالة، والتعبير عن المضمون، حيث تكمل ما تبقى منه، هذه الكلمات هى: فعز ــ انتخوا ــ تاهوا ــ وكلها تتحدث ــ كما نرى ــ عن اليهود، حيث تصف حالهم، وتجسد واقعهم بعد فعلة الأمير، فقد قوى شأنهم بصاحبهم، وتأكد أمرهم به، فعزوا بعد ذل، وانتخوا بعد هوان ، وتاهوا شرفا وزهوا، بعدما كانوا أذلة صاغرين!٠

ومن تلك المواضع التى نلتقى فيها بالكلمات الدالة، واللبنات المعبرة فى النونية أيضا ما جاء فى قول الشاعر ــ وهو بمعرض

تحذيره الأمير من موالاة اليهود، واستعمالهم ــ كاشفا بين يديه عن خطرهم الشديد:

فقد ضجت الأرض من فسقهم ∴ وكادت تميد بنا أجمعين

فقد جسدت كلمتا: "ضجت، تميد" المضمون الذى يقصده الشاعر أيما تجسيد!، حيث صورتا ــ كما نرى ــ شدة خطر اليهود، وبالغ ضررهم الذى يلحق بالمسلمين ــ وهو ما قد يغيب عن أنظار الأمير ويزيغ عن بصره ــ فالأرض ــ بما رحبت ــ تضيق من أفعالهم ، وتتبرم بها، وكادت من أثر ذلك تميل بالخلق، وتهوى بهم أسفل سافلين ــ مع ما تقوم عليه من جبال راسيات، وأعمدة راسخات!! .

كذلك نلتقى بمثل هذه الكلمات الدالة، واللبنات الموحية فى قول الشاعر يصور تعجبه من الأمير فى ميله لليهود، وركونه إليهم، وانخداعه بهم، وطمأنينته لهم:

وكيف استنمت إلى فاسق ∴ وقارنته ـ وهو بيس القرين؟!

حيث تطالعنا فى هذا البيت كلمة "استنمت" تلك التى أصاب بها الشاعر كبد الحقيقة، فهى تقف ــ بحق ــ على طبيعة اليهود، وتجسد حقيقتهم، حيث يجيدون الدهاء والخداع، والتأثير فى غيرهم بما عرف عنهم من قلب الحقائق وليها، وقد كان هذا الأمير واحدا من ضحاياهم الذين وقعوا فى شراكهم، وانطلى عليه أمرهم، وانخدع بحلو حديثهم، فوالاهم، ومال إليهم فى غير ما يقظة ولا إدراك، غافلا عن طبيعتهم التى أنبأ عنها القرآن الكريم فى مواضع كثيرة منه محذرا المسلمين منهم . يقول تعالى: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ... ﴾ (١) .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا إسحاق الإلبيرى قد جنح فى صياغته للنونية إلى السهولة والبساطة والوضوح ــ شأن أغلب شعراء الأندلس ــ فجاءت كلماته سهلة سمحة، واضحة المأتى،

(١) من الآية ٨٢ من سورة المائدة.

قريبة المأخذ، بريئة من الغموض، سالمة من التعقيد، حيث كانت من النوع القريب الذى لا يحتاج فى فهم معناه إلى الغوص فى معاجم اللغة، وهو ــ أى الشاعر ــ فى إيثاره للصياغة القريبة المحددة هنا قد ناسب ما بصدده من أفكار ومعان تقريرية، حيث إنه بإزاء رأى يجهر به ، ونصح يبديه، ثم إنه أمام جمهور معرفتهم بأسرار العربية متواضعة، وفقههم بأساليبها وتراكيبها قليل جدا ، مما يجعله ... يقتصد فى صياغته ــ هؤلاء القوم هم البربر: "فقد كان [أى الشاعر] يعرف أن الجنود الذين اصطفاهم أصلا بالحديث من بربر صنهاجة، ولعل بعضهم جاء إلى غرناطة من قريب، وهؤلاء الأفارقة ليسوا مهيئين للأشعار الرقيقة وحظهم من العربية متواضع، وكل ما يستطيعونه أن يدركوا الغاية منها فحسب، وكل نصيبهم من المعجم اللغوى العربى الألفاظ ذات الدلالة الدينية ... [ولذا] فسوف يبتعد الشاعر فى هذه المناسبة عن الكلمات الغامضة، وعن الرموز الشعرية، وعن الأوصاف والأقوال المكرورة فى مصنع الشعراء، فليأخذ من العربية أشد الكلمات قوة وصلابة .. والألفاظ التى يمكن أن يفهمها كل مسلم قادر على قراءة القرآن الكريم، وأن يجمعها فى تراكيب سهلة غير معقدة"(١).

كما جاءت صياغة الشاعر فى النونية فصيحة جارية على سنن مقاييس العرب، وطرائقهم الصحيحة فى التعبير، وخالية من الحوشى الغريب.

الأساليب:

الأسلوب هو الجسد بالنسبة للنص الأدبى، لا تقوم له قائمة بدونه، فهو الطريق الذى يعبر المبدع من خلاله عما يجيش فى

(١) دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ــ حرر بعضها وترجم البعض الآخر د/ الطاهر أحمد مكى صـ٧٣، ٧٤، ويلحظ أن هذا النص المذكور ضمن النصوص التى ترجمها المؤلف.

صدره، ويمس إحساساته ومشاعره إزاء ما يمر به من تجارب، ومواقف حياتية مختلفة.

وقد عرفه النقاد القدامى بأنه: "المنوال الذى تنسج فيه التراكيب، أو القالب الذى تفرغ فيه"(١).

وعرفه المحدثون منهم بأنه: "طريقة الكتابة، أو طريقة الإنشاء، أو طريقة اختيار الألفاظ، وتأليفها للتعبير بها عن المعانى بقصد الإيضاح، والتأثير"(٢).

والناظر فى القصيدة النونية يلحظ أن صاحبها قد زاوج فى استعماله للأساليب بين الخبرية والإنشائية ـ شأنه فى ذلك شأن غيره من المبدعين بعامة، إذ إن لكل منهما دوره المنوط به فى خدمة المعنى وإبرازه، ولكل من الأسلوبين جوه ومقامه الذى يصلح فيه ، وينسجم معه.

إلا أنه يبدو لمن يطالع النونية إكثار أبىإسحاق الإلبيرى من استعمال الأساليب الخبرية فيها كثرة ملحوظة ... وهذا يتفق مع طبيعة القصيدة، حيث تقوم على سوق حقائق، وتقرير وقائع، وتقديم أدلة، وإيضاح الحق فى ذلك كله، مما يناسبه الأسلوب الخبرى.

ومن هذه المواضع الكثيرة التى آثر فيها الشاعر استخدام الأسلوب الخبرى قوله يصور ما لحق بالمسلمين من خزى ومهانة ـ بعدما تمكن منهم هذا اليهودى الصاغر:

ويضحك منا ومن ديننا .·. فإنا إلى ربنا راجعون!

---

(١) المقدمة : ابن خلدون ـ صـ٤٧٦، مطبعة التقدم بمصر ـ ١٣٢٢هـ.

(٢) الأسلوب ـ د/ أحمد الشايب ـ صـ٤٤ ـ ط مكتبة النهضة المصرية ـ الطبعة الثامنة ـ ١٩٨٨م.

والشاعر يشير فى الشطرة الأولى من هذا البيت إلى تجرؤ ابن النغريلة "الوزير اليهودى" على الإسلام والمسلمين، وسخريته وهزئه منهم، حيث نطق بكلام فيه استخفاف بالقرآن الكريم والدين القويم، وتأتى الشطرة الثانية من البيت متضمنة تعبيرا خبريا دالا ينطق بذهاب ريح المسلمين، وضياع هيبتهم، إذا لم يهبوا جميعا واقفين فى وجه هذا الدعي الذنب، ورده عن غيه ونزقه .. وفى التعبير بهذا التركيب أيضا دلالة على الأسف والمرارة التى يجدها الشاعر فى نفسه ــ وهو المسلم الصادق الغيور.

وهذا الموضع القائم على التقرير والإخبار هو واحد من عشرات المواضع فى القصيدة.

أما عن الأساليب الإنشائية ــ والتى يستعان بها عادة فى إثارة أذهان المتلقين، وجذب انتباههم ، ولفت أنظارهم ــ فهى قليلة الوجود فى القصيدة، تكاد تنحصر فى أسلوبى: النداء، والاستفهام، أما أسلوب النداء فقد ورد فى موضع واحد فى النونية، حيث قول الشاعر ينادى الأمير لافتا نظره، ومثيرا انتباهه من خلال إشادته بما يتسم به من حذق وحزم، وبصيرة نافذة، وعقل واع يزن به الأمور ويرجح بينها:

أباديس أنت امرؤ حاذق ∴ تصيب بظنك نفس اليقين

ويلحظ هنا إيثار الإلبيرى من بين حروف النداء حرفا يدل على القرب، إشعارا منه بقرب المنادى، وحبه له، كما يلحظ أيضا أن الشاعر قد مهد بهذا المدح وذلك الإطراء لشخص الممدوح فى البيت المذكور ــ مهد بذلك لما سيوجهه له من كلام قد يكون فيه مس لشخصه، ونقد لذاته ــ وهو الأمير ــ وفى هذا مدعاة لعدم الغضب والانصراف عن النصح والتوجيه من قبل الأمير.

وهذه أربعة أبيات متتالية تعقب هذا البيت المذكور ــ ذلك الذى تضمن مدح الأمير وإطراءه ــ يصور فيها الشاعر عن طريق الاستفهامات المتكررة شدة ذهوله، وفائق تعجبه، إزاء ما وقع فيه الأمير من تصرف معوج يخالف فيه منهج الدين القويم، حيث يقول:

فكيف اختفت عنك أعيانهم ∴ وفى الأرض تضرب منها القرون؟!
وكيف تحب فراخ الزنا ∴ وهم بغضوك إلى العالمين؟!
وكيف يتم لك المرتقى ∴ إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟!
وكيف استنمت إلى فاسق ∴ وقارنته ـ وهو بيس القرين؟!
وكيف انفردت بتقريبهم ∴ وهم فى البلاد من المبعدين

والشاعر يقف هنا من الأمير ناصحا وموجها، حيث يجسد من خلال تلك الاستفهامات المتتالية ــ وما تدل عليه هنا من التعجب والإنكار ــ يجسد من خلالها شدة تعجبه واستغرابه من موقف الأمير فى تقريبه لليهود، غير فاطن لطبيعتهم وحقيقتهم التى تشهد بها القرون، وكذا من محبته إياهم، وميله لهم ــ وهم سبب بعده عن المسلمين ، وكرههم إياه!!٠

ثم هم ــ أى اليهود ــ معول هدم له ولإمارته، فهو يمكنهم، وهم سيطيحون به٠

والبيت الأخير يشير فيه الشاعر ــ من خلال ذلك الاستفهام الإنكارى التعجبى ــ إلى أن هذا التصرف المشين من الأمير كان قد ابتدعه، ولم يسبق إليه ، وليته ما فعل!٠

والذى يطل بنظره فى النونية يجد الشاعر قد وشى بعض أساليبه ببعض من المحسنات البديعية ــ التى جاءت فى أغلبها ــ طبعية عفوية برئت من التكلف، وسلمت من التعسف، فلم يقصدها الشاعر قصدا، وإنما المعنى هو الذى اقتضاها، والمضمون هو الذى

تطلبها، فجاءت فى موقعها، وأدت دورها فى خدمة المضمون وإبرازه، ولم تكن فقط مجرد حلية شكلية، ولا زينة لفظية.

وقد تنوعت المحسنات فى النونية بين الطباق والمقابلة والجناس والاقتباس.

يأتى فى مقدمة تلك الأساليب أسلوبا الطباق والمقابلة، حيث تفيض بهما أبيات القصيدة.

ومن ذلك قول الشاعر يشير إلى ما وقع فيه الأمير من خطأ، وما هوى من زلل:

تخير كاتبه كافرا ∴ ولو شاء كان من المسلمين

فبين كلمتى: "كافرا، المسلمين" طباق أبرز المعنى وجلاه وأكده، حيث تأكد به عظم جرم الأمير، وكبير خطئه، وأنه وقع فى شىء عظيم ، لا يقبل منه عذر فيه، إذ إن هناك من بين المسلمين من يصلحون للقيام بذلك الأمر، وكان فى مكنة الأمير أن يتخير منهم، ولكنه آثر ووالى غير المسلمين!!.

ومن صور الطباق فى النونية أيضا قول أبى إسحاق الإلبيرى مصورا تعجبه الشديد من موالاة الأمير لليهود، وتقريبه إياهم غير مسبوق فى هذا من أحد من قبله:

وكيف انفردت بتقريبهم ∴ وهم فى البلاد من المبعدين؟!

وقد أمعن الإلبيرى من خلال جمعه بين هاتين الكلمتين المتضادتين "تقريبهم ــ المبعدين" ــ فى تعجبه من الأمير، وإنكاره عليه هذا الفعل البغيض الذى رفع من شأن اليهود، ومكنهم بعدما كانوا أذلة صاغرين، ومما يزيد من تصرف الأمير قبحا أنه قد ابتدعه، وسَبَق إليه، سانا بذلك سنة سيئة، ومبتدعا بدعة بغيضة إلى

يوم الدين يدل على ذلك ــ بجانب الطباق الوارد بين هاتين الكلمتين المذكورتين ــ تعبيره بكلمة: "انفردت" تلك التى يخاطب بها الأمير ٠

وتبدو هذه الظاهرة الأسلوبية ــ أعنى الطباق ــ متحققة أيضا فى قول أبى إسحاق الإلبيرى يصور تغير الحال، وتبدل الواقع فى مجتمع غرناطة كأثر طبيعى من آثار تصرف الأمير المعوج:

وكيف تكون لهم ذمة ∴ ونحن خمول وهم ظاهرون؟!
ونحن الأذلة من بينهم ∴ كأنا أسأنا وهم محسنون!!

والشاعر يصور هنا ما آل إليه حال الفريقين ــ (المسلمين، واليهود) حيث صار كل فريق منهما فى مقابل الآخر ... فقد ذل المسلمون بعد عزهم ، وعز اليهود بعد ذلهم، ولهذا فلم يعد فى قتلهم إثم، وليس لهم عند المسلمين ذمة، ولم لا وهم ــ أى اليهود ــ الظاهرون الظافرون، والمسلمون خاملون مبعدون، وكان للطباق الواقع بين (خمول ــ الظاهرون) دوره الكبير فى إبراز المعنى، وتجليته وتأكيده فى أذهان المتلقين هنا، حيث يجسد الواقع الذى يحياه مجتمع غرناطة آنئذ، وفيه إلهاب لمشاعر المسلمين، وإثارة لحفيظتهم وغضبهم إزاء هذا الواقع الذليل الذى يرسف فيه المسلمون فى قيود الذل والهوان ٠

والبيت الثانى يؤكد فيه الشاعر ذلك الواقع المهين، ولا يخفى الطباق الواقع فيه بين كلمتى: "أسأنا ــ محسنون" وما له من أثر كبير فى تجسيد واقع الفريقين، وكيف أنه واقع مقلوب، يناقض الطبيعة، ويخالف العادة فى مجتمع المسلمين!! ٠

وكما استعان الشاعر بالطباق فى إبراز معانيه، وتجلية مضامينه وتأكيدها فى أذهان المتلقين فقد أفاد من المقابلة ووظفها فى أكثر من موضع فى القصيدة ٠

ومن ذلك قوله يمعن فى تعجبه وإنكاره إزاء ما وقع فيه الأمير حين والى اليهود من دون المؤمنين، مصورا كيف جر عليه هذا التصرف الويلات، وصب عليه اللعنات:

وكيف تحب فراخ الزنا ∴ وهم بغضوك إلى العالمين؟!
وكيف يتم لك المرتقى ∴ إذا كنت تبنى وهم يهدمون؟!

فقد قابل الشاعر ــ كما نرى ــ بين شطرتى البيتين، مؤكدا بذلك ما بصدده من معان، حيث أشار فى البيت الأول إلى أن حب الأمير، وموالاته لليهود (فراخ الزنا) قد سلب منه حب المسلمين، وأورثه بغضهم.

والبيت الثانى يؤكد فيه الشاعر كيف أن هذا الفعل من الأمير قد أورده موارد الهلاك، حيث يشير إلى أن هذا التصرف المعيب من الأمير قد حال بينه وبين الارتقاء والنهوض، آخذا بيديه نحو النكوص والعثار.

ونلتقى بالمقابلات وهى تتتابع تترى فى الأبيات التالية ــ تلك التى يصور فيها الإلبيرى حالين مختلفين، وواقعين متباينين عاشهما اليهود والمسلمون فى ظل وزارة اليهودى، معددا لمظاهر هذين الواقعين، حيث يقول:

وهم يلبسون رفيع الكسا ∴ وأنتم لأوضعها لابسون!
ويأكل غيرهم درهما ∴ فيقصى ، ويدنون إذ يأكلون!
وهم يذبحون بأسواقها ∴ وأنتم لأطرافها آكلون!

فلنا أن ننظر فى هذه المقابلات المتتالية فى الأبيات، حيث يبدو من خلالها بجلاء ــ واقع الأندلس آنئذ، وما عليه الفريقان ــ فريق الكفر، وفريق الإيمان، ففى الوقت الذى ينعم به اليهود بأفخم الثياب، يلبس المسلمون رثها، ويرتدون ما بلى منها، وفى حين يقع العقاب

على المسلمين حين يأخذون أقل القليل من المال، يقرب ــ اليهــود، ويحظون بالترحيب حين يقدمون على ما أقدم عليه المسلمون٠

كذلك يتنعم اليهود بأطايب الطعام وأجوده، فــى حــين يحــرم المسلمون من ذلك مكتفين بالفتات!! كل هذه المعانى التى تصور ذلك الواقع المضطرب، والحال المقلوب قد حملتها المقابلة، وكانت إطارا لها: "فقد حوت هذه الأبيات مقابلات فكرية فى شكل طباق، وذلك مما ينشط الذهن ، ويثير حركة الفكر إلى التلقى والاستيعاب؛ لتباعد هذه الأشياء فى الواقع، ثم تجاورها وتمازجها فى الأبيات، وهذا مما يثير الدهشة، ويحقق لونا من الإمتاع الذهنى والفكرى"(١)٠

أما الجناس ــ فمع وروده فى موضع واحد فى القصيدة تقريبا ــ إلا أنه فى غاية القوة، ومنتهى الجودة، حيث يؤدى المقصود منه، ويؤتى الثمرة المرجوة منه على أتم وجه٠

يبدو ذلك فى قول أبى إسحاق الإلبيرى يؤكــد تــنعم اليهــود، وتوفرهم على ألوان الخير، واستئثارهم به فى ظل وزيرهم:

وهــم يقبضــون جباياتهــا ∴ وهــم يخضــمون وهــم يقضــمون

فبين: "يخضمون ويقضمون" جناس ناقص رائع دال، حيث أكد من خلاله الشاعر مدى تنعم اليهود بالخيرات، واستئثارهم بها جميعا ــ ما صلب منها وما رق .. وكأنى بالإلبيرى هنا ــ ومن خلال هــذا الجناس ــ يجهر ويصرخ ــ قائلا: "إن اليهود قــد أكلــوا الأخضــر واليابس، وأتوا عليهم جميعا، ولم يبقوا للمسلمين شيئا٠

(١) شعر خلفاء بنى أمية ــ تحقيق ودراسة الــدكتور/ الســيد أحمــد عمارة صــ١٥٢ ــ مطابع غباشى ــ بطنطــا ــ ١٤٠٨هـــ ــ ١٩٨٨م٠

كما أفاد شاعرنا فى بناء أساليبه، وصنع تراكيبه من الصياغة القرآنية الحكيمة، حيث تأثر بها، ونسج على منوالها فى مواضع متفرقة من النونية مزينا بذلك تراكيبه، ومضفيا عليها مزيدا من السحر والبلاغة ٠

ومن ذلك قوله موجها باللوم والعتاب إزاء الأمير فى عدم الاقتداء بأسلافه من الخيرة المتقين، حيث لم ينزل اليهود الموضع الذى يستحقونه، والذى لا يعلنون معه تمردا، ولا خروجا على جماعة المسلمين:

فهلا اقتدى فيهم بالألى ∴ من القادة الخيرة المتقين!
وأنزلهم حيث يستاهلون ∴ ورهم أسفل السافلين

فقوله يشير إلى ما كان ينبغى على الأمير أن يفعله إزاء اليهود حيث ينزلهم موقعا يشعرون فيه بصغارهم وحقارتهم: "ورهم أسفل السافلين" ٠

هذا التركيب قد قبسه الإلبيرى من نور قول الله سبحانه: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾ ثُمَّ رَدَدْنَٰهُ أَسْفَلَ سَٰفِلِينَ﴾(١) ٠

ونلتقى بالشاعر ثانية ، ومن خلال أحد المواضع التى تأثر فيها بالصياغة القرآنية الحكيمة، وأفاد فيها من مضمون كتاب الله المنير، حيث يحذر الأمير من اليهود، مصورا بين يديه شدة خطرهم عليه، وفداحة ما وقع فيه حين اتخذ من اليهود أولياء من دون المؤمنين:

وقد أنزل الله فى وحيه ∴ يحذر من صحبة الفاسقين
فلا تتخذ منهم خادما ∴ وذرهم إلى لعنة اللاعنين

والإلبيرى هنا يذكر الأمير بحكم الله سبحانه فى اتخاذه ابن النغريلة من دون المؤمنين ، حيث ينزل فى نصحه إياه، وإيضاح وجه الحق بين يديه ينزل فى ذلك على هدى الكتاب العزيز ومضمونه

(١) الآيتان ٤، ٥ من سورة التين ٠

الراشد فى آياته التى نزلت فى هذا الشأن الخطير من مثل قوله تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ ٱللَّهِ فِى شَىْءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُوا۟ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ ٱلْمَصِيرُ﴾[1]، وقوله جل وعلا: ﴿۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[2].

ويبدو حرص الإلبيرى على الإفادة من الأسلوب القرآنى، والتأثر بطريقته فى التعبير، وتوظيف مضمونه الراشد من خلال اختتام نونيته بختام أفاد فيه من مضمون كتاب الله الحكيم، حيث يقول:

وراقب إلهك فى حزبه ∴ فحزب الإله هم الغالبون

حيث لا يخفى أن الشاعر قد أفاد فى مضمونه هنا من هدى قول الله سبحانه: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾[3] وقول عز اسمه: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾[4].

ثالثا : الصورة الفنية:

يعد التصوير الشعرى أحد الدعائم الأساسية التى تقوم عليها التجربة الشعرية،وهو عنصر مهم بين عناصر النص الأدبى، ومقوم رئيس من مقوماته،فهو:"أحد الوسائل الفنية المستخدمة فى القصيدة، ويتكون من مجموعة من العناصر المتباينة، والجزئيات المختلفة التى تتآزر لتخرج فى النهاية قدرة تعبيرية عن موقف ما"[5].

---

(١) الآية ٢٨ من سورة آل عمران.
(٢) الآية ٥١ من سورة المائدة .
(٣) الآية ٥٦ من سورة المائدة .
(٤) من الآية ٢٢ من سورة المجادلة .
(٥) عناصر الإبداع الفنى فى شعر الأعشى: عباس بيومى عجلان صـ٢٤٧ ــ ط دار المعارف ــ مطابع جريدة السفير ــ الإسكندرية . د.ت.

والناظر فى الصورة الشعرية التى ألفها خيال أبى إسحاق الإلبيرى فى القصيدة يلحظ أنه اقتصد إلى حد كبير من استعمال الصور والأخيلة، فلم يكثر من الصور الفنية، ولم يفرط فى استعمالها ... حيث آثر ــ فى أداء معانيه ، وإيصال مضامينه ــ لغة قريبة، وصياغة تقوم على التقرير والمباشرة أكثر مما تقوم على الخيال والتصوير؛ وهذا يرجع فى نظرى إلى طبيعة التجربة الشعرية وموضوعها، ومتلقيها ــ على نحو ما سبق إيضاحه ، وسلف بيانه(١).

وقد كانت هذه الصور القليلة من النوع الجزئى ــ ذلك الذى يقوم على التشبيه والاستعارة والكناية ..

ومن ذلك قوله فى مفتتح القصيدة :

ألا قل لصنهاجة أجمعين .·. بدور الندى وأسد العرين

والشاعر قد استعان ــ كما نرى ــ فى أداء معناه، وإتمام مقصوده بالتشبيه، حيث يشبه أهل صنهاجة هنا بصورتين ــ الأولى يشبههم فيها بالأقمار فى المجالس والمحافل، ومجتمع الناس، بجامع علو المنزلة، ورفعة الشأن، والهداية والإرشاد.

والثانية : يشبههم فيها بأسد العرين فى القوة والشجاعة والجرأة والإقدام .. والإلبيرى بهذه الأوصاف التى خلعها على قومه، وبذلك الإطراء لهم، والثناء عليهم ــ هو بذلك يحفزهم ويشجعهم على أن يقبلوا على كلامه بعدما هيأ نفوسهم ، واستمال قلوبهم، فيقومون بذلك بالدور المنتظر منهم، ويقفون الموقف اللائق بهم إزاء ما حدث، حيث يعملون عقولهم، ويفيدون من شجاعتهم.

(١) حيث الحديث عن الألفاظ والتراكيب فى النونية .

ونلتقى بالتشبيه أيضا فى النونية فى قول الإلبيرى يهيب بالأمير أن يقدم على ذبح الوزير اليهودى، مضحيا به، متقربا بذلك إلى الله سبحانه، وذلك على سبيل الهزء والسخرية من شخص الوزير:

فبادر إلى ذبحه قربة ∴ وضح به فهو كبش سمين

فقد شبه الشاعر ــ كما نرى ــ ذلك الوزير بالكبش السمين، ويا له من تصوير ساخر يثير السخرية، ويحمل على الهزء من اليهودى، بعدما لم يفرق الشاعر بين المشبه والمشبه به هنا، وسوى بينهما تماما ــ بعد أن حذف الأداة، فكلاهما صالح للذبح، وأهل لأن يضحى به٠

وقد كان للكناية ورود هى الأخرى فى القصيدة، ومن أمثلتها قول أبىإسحاق الإلبيرى يصور واقع اليهود، وحالهم قبل أن يلى الوزارة صاحبهم:

وقموا المزابل عن خرقة ∴ ملونة لدثار الدفين

وهذا البيت صورة كنائية يجسد الشاعر من خلالها حال اليهود، وما كانوا عليه من ذلة وصغار وفقر مدقع، بما كانوا يقومون به من الالتفاف حول المزابل يبحثون فيها عما يمكن أن يقيم أودهم، ويستر بدنهم!!٠

ومن أمثلة الكناية فى القصيدة أيضا قول الشاعر يصور مدى ضيق الأرض والأحياء من فسق اليهود، وفسادهم:

فقد ضجت الأرض من فسقهم ∴ وكادت تميد بنا أجمعين

ويا له من تعبير كنائى بليغ جسد الشاعر من خلاله كيف أن الأرض ــ على اتساعها، ورحابة جنباتها، ورسوخها ــ كادت تضيق

وتضطرب بهؤلاء اليهود، بل وبغيرهم بعدما حلت على الناس جميعا لعنتهم، كما يفهم من تعبيره بضمير المتكلمين فى قوله: (تميد بنا..) هذا إذا سكت المسلمون، ولم يغضبوا لدينهم، ولم يثأروا لكرامتهم، وعزتهم ٠

ونلتقى بصورة أخرى من صور الكناية فى النونية وذلك فى قول الشاعر عن الوزير اليهودى، واصفا ما طرأ على حاله من تغيير بعدما ولى الوزارة:

ورخم قردهم داره ∴ وأجرى إليها نمير العيون!

والبيت يوقفنا على طبيعة بيت الوزير اليهودى، وكيف أنه بالغ فى تزيينه، وأسرف فى تشييده، بعدما جعله من الرخام، وفجر له من العيون، إمعانا فى الزينة والإسراف، وقد كنى الإلبيرى عن ذلك كله بتعبيره بكلمة: "رخم" الواردة فى مستهل البيت، كما كنى عن الوزير بقوله: "قردهم" إمعانا فى تحقيره وتصغيره، ووصفه بضعة الشأن، وضآلة القدر ٠

رابعا : العاطفة:

تعد العاطفة مقوما أساسيا، وعنصرا مهما من مقومات وعناصر النص الأدبى، فهى السمة المميزة للعمل الأدبى عن غيره من أجناس الكلام الأخرى التى تقوم ــ غالبا ــ على ذكر الحقائق العلمية الجافة ، بعيدا فى ذلك عن تصوير المشاعر الإنسانية، وتجسيد الإحساسات والانفعالات والوجدانات التى لا يخلو العمل الأدبى قط منها ٠

ويراد بالعاطفة: "كل ما يعترى الإنسان من ألوان الانفعال ، كالحب، والكره، والفرح، والحزن، والألم، والشكوى ... ومن هنا

يتسع مجال العاطفة، ويتناول الشعر أساليب الحياة التى تجول فيها هذه العواطف ويتأثر بها الشاعر"[١].

ترى ما حال العاطفة عند الشاعر فى قصيدته؟ وما مدى توفر تلك العاطفة على الصدق والقوة والثبات والسمو من عدم ذلك؟ وهل نجح الشاعر من خلالها فى التأثير فى نفوس المتلقين؟ هذه التساؤلات ستجيب عنها السطور القادمة من الدراسة ـ بإذن الله سبحانه.

أقول لقد بدا لنا مما سبق من صفحات هذه الدراسة كيف أن هذه القصيدة قد نبعت من وحى تجربة حقيقية عاشها الشاعر، وعاناها، وهذا لا شك يصبغها (أى التجربة) بصبغة الصدق، ويضفى عليها صفة السمو، ويجعلها تنطلق من التعبير عن مشاعر صادقة، بعيدة عن الزيف والتكلف والافتعال.

وليس هناك عجب فى أن تتسم عاطفة الشاعر هنا بسمات الصدق والقوة والسمو؛ فهى تنطلق من منطلق حب الدين ، وبذل كل غال ونفيس فى الذود عن حماه، والذب عن عرينه، حيث لا يخفى أن حب الدين أمر فطرى فى نفس المؤمن، وهو ـ أى حب الدين ـ هو ما دفع بشاعرنا أن يجهر بما جهر به .

وقد تنوعت عاطفة الشاعر عبر قصيدته هذه بين إبداء مشاعر الحب منه للأمير "المسلم"، والحرص على ما فيه الخير والرشاد له، وذلك من خلال تقديم الشاعر النصح والتوجيه بين يدى الأمير، وهو: أى الشاعر ينطلق فى هذا ـ كما ذكرت ـ من منطلق حب الدين ـ

(١) فى النقد الأدبى الحديث د/ محمد إسماعيل شاهين صـ٤٣ ـ مطبعة الأمانة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

ممثلا فى نصح الأمير ــ ولى أمر المسلمين، والقائم على الــدين ــ وإبداء وجه الحق بين يديه٠

يبدو ذلك فى قول الشاعر يهيب بالأمير، ويلفت نظره إلى مــا كان ينبغى عليه أن يفعله مع اليهود، وما يجب أن يعاملهم به، مقتديا فى ذلك بأسلافه من الأمراء والقادة الصالحين:

فهــلا اقتــدى فــيهم بــالألى ∴ مــن القــادة الخــيرة المــتقين!
وأنــزلهم حيــث يســتاهلون ∴ وردهــم أســفل الســافلين

والإلبيرى قد انطلق فى نصحه للأمير، وتوجيهه إياه، ونقــده لسياسته، قد انطلق فى ذلك من منطلق حب الدين والأمير معا، مبتغيا من ذلك نصرة الدين، وعز المسلمين ٠

وتمتزج عند الإلبيرى مشاعر الحــب والإشــفاق إزاء الأميــر بمشاعر السخط والكره إزاء اليهود فى قوله:

أبــاديس أنــت امــرؤ حــاذق ∴ تصــيب بظنــك نفــس الــيقين
فكيــف اختفــت عنــك أعيــانهم ∴ وفــى الأرض تضــرب منهــا القــرون؟!
وكيــف تحــب فــراخ الزنــا ∴ وهــم بغضــوك إلى العــالمين؟!
وكيــف يــتم لــك المرتقــى ∴ إذا كنــت تبنــى وهــم يهــدمون؟!
وكيــف اســتنمت إلى فاســق ∴ وقارنتــه ـ وهــو بــيس القــرين؟!
وقــد أنــزل الله فــى وحيــه ∴ يحــذر مــن صــحبة الفاســقين
فــلا تتخــذ مــنهم خادمــا ∴ وذرهــم إلى لعنــة اللاعــنين
فقــد ضــجت الأرض مــن فســقهم ∴ وكــادت تميــد بنــا أجمعــين
تأمــل بعينيــك أقطارهــا ∴ تجــدهم كلابــا بهــا خاســئين

أما عن مشاعر الحب والتقدير والإشفاق عنــد الشــاعر إزاء الأمير فتتبدى فى هذه الأبيات المذكورة من خلال هذه النصائح التــى أسداها الشاعر للأمير، والتوجيهات التى أهداها بين يديــه، مقــدما عليها هذا الإطراء لشخص الأمير، حيث يصفه بالمهارة، والحــذق،

ورجاحة العقل؛ وحسن تقديره للأمور، متعجبا كيف وقع ذلك الرجل فيما وقع فيه ــ وهو بهذه الصفات؟!.

وعلى كل حال فالشاعر يهيب بالأمير أن ينقذ الموقف، فيضع الأمور فى نصابها الصحيح، ناجيا بنفسه، ومبقيا على حبه وهيبته بين إخوانه،ورعيته من المسلمين، فلنا أن نستمع إلى الشاعر وهو ينادى الأمير بهذا النداء الحانى الممتزج باللوم والعتاب والتوجيه:

أبـاديس أنـت امـرؤ حـاذق ∴ تصـيب بظنـك نفـس اليقين
فكيـف اختفـت عنـك أعيـانهم ∴ وفـى الأرض تضـرب منهـا القـرون؟!

حيث يبدو من خلال كلمات هذين البيتين كيف أن الشاعر محب للأمير، مشفق عليه، راج له أن ينجو من الخطر الذى وقع فيه، ويكاد يطيح به.

وفى المقابل تتبدى مشاعر الكره فى نفس الشاعر إزاء اليهود، والسخط عليهم ... وقد تحقق ذلك فى أكثر من موضع فى الأبيات المذكورة هنا .. من مثل وصفه إياهم بأقبح الأوصاف، وتعريضه بهم، فهم فراخ الزنا، وهم أهل الفسق، وأرباب الرذيلة، وأشياع الفساد، وهم كلاب خاسئون، ملوحا فى أثناء هذا الهجاء اللاذع ببعض من آى الذكر الحكيم التى[1] عرضت بهم ، وحذرت من موالاتهم .

وهم ــ أى اليهود ــ سبب بغض الرعية للأمير ، وهم بغضوك إلى العالمين .

ومن مثل وصف الوزير اليهودى فى قول الشاعر يتعجب من ميل الأمير إليه، ومخالطته إياه:

(١) على نحو ما ورد ذكره ــ قبل ذلك ــ من آيات الله البينات التى أمعنت فى تحذير المؤمنين من موالاة اليهود.

وكيـــف اســـتنمت إلى فاســـق ∴ وقارنتـــه ـ وهـــو بـــيس القـــرين؟!

ومن مثل قوله عن اليهود ، وقد بلغت مشاعر الكره والســـخط والضجر ذروتها فى نفسه:

فـــلا تتخـــذ مـــنهم خادمـــا ∴ وذرهـــم إلى لعنـــة اللاعـــنين
فقـد ضـجت الأرض مـن فسـقهم ∴ وكـــادت تميـــد بنـــا أجمعـــين
تأمـــل بعينيـــك أقطارهـــا ∴ تجـــدهم كلابـــا بهـــا خاســـئين

والشاعر يمعن من خلال تعابيره الموحية، وكلماته الدالة التى تتوفر عليها هذه الأبيات، من مثل تعبيره عن اليهود بكلمات: ضجت الأرض من فسقهم ــ وكادت تميد ....، ومن مثـــل تشـــبيه حـــالهم بالكلاب فى الخسة والصغار ــ يمعن من خلال ذلك فى إبداء ما يكنه إزاءهم من مشاعر الكره والسخط والضجر، ولم يضق الأحياء فقـــط بهم، ولم يضجروا وحدهم من فسقهم وفسادهم، وإنما الأرض ــ على سعتها ــ قد ضاقت بهم، وهمت بابتلاعهم، معلنة الحـــرب علـــيهم، وكادت تأخذ الجميع بذنبهم: وكادت تميد بنا أجمعين.

هذا وتتبدى مشاعر الأسى والحزن عند الشاعر فـــى مواضـــع متفرقة من القصيدة، لاسيما عندما يهم بنقل بعض مشاهد ذلك الواقع المقلوب الذى كان يحياه مجتمع غرناطة والذى ترتب على التصرف المعوج الذى صدر من الأمير، فعز به اليهود، وذل المسلمون، وفـــى أثناء تصوير الشاعر لتلك الأحاسيس الحزينة، والمشـــاعر الشـــجية التى يغلب عليها الانكسار ــ فى أثناء ذلك ــ نـــراه ينشـــد النجـــاة، ويبحث عن المخلص، فيقدم بين يدى الأمير طائفـــة مـــن النصـــائح والتوجيهات التى هى السبيل إلى النجاة، حيث تمتزج العاطفة القاتمة الغائمة بالعاطفة الآملة المشرقة .

وزبدة القول هنا: إن هذه القصـــيدة جـــاءت صـــدى لتجربـــة شعورية قوية، تأثر بها الشاعر، وعـــانى أحـــداثها، وانفعلـــت بهـــا

أحاسيسه، فتفجر الشعر على لسانه، فهو ــ أى الشاعر ــ لم يفتعل التجربة، ولم يتكلف معانيها، وإنما كونها من ذاته، وأخرجها من أعماقه، يدفعه فيها حبه للدين، وحرصه على ما فيه الخير للمسلمين، بعيدا فى ذلك عن أي زيف، أو تكلف أو افتعال ٠

وهذا من شأنه يجعل العاطفة هنا صادقة قوية سامية إيجابية ، ويدخلها فى نطاق الأدب المثالى ــ ذلك الذى : "يبعث فينا حماسة النهوض بالواجبات الفردية والاجتماعية"(١)٠

خامسا : الموسيقى:

الموسيقى هى السمة الحاسمة، والعلامة المميزة للشعر عن النثر: "حيث لا يوجد شعر بدون موسيقى، يتجلى فيها جوهره، وجوه الزاخر بالنغم، موسيقى تؤثر فى أعصاب السامعين ومشاعرهم بقواها الخفية التى تشبه قوى السحر، قوى تنشر فى نفوسهم موجات من الانفعال، يحسون بتناغمهم معها ... وهو إحساس دقيق بأن الموسيقى لب الشعر، وعماده الذى لا تقوم له قائمة بدونه"(٢)٠

والموسيقى من أقوى عناصر التأثير فى النص الشعرى، وهى مقوم مهم من مقومات كماله وجماله: "حيث تهب الكلام مظهرا من مظاهر العظمة والجلال، وتجعله مصقولا مهذبا تصل معانيه إلى القلب بمجرد سماعه، وكل ذلك مما يثير فينا الرغبة فى قراءته وإنشاده ... وليس الشعر فى الحقيقة إلا كلاما موسيقيا تنفعل لموسيقاه النفوس، وتتأثر بها القلوب"(٣)٠

---

(١) أصول النقد الأدبى د/ أحمد الشايب ــ صـ٢٠٤، ٢٠٥، ط مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثامنة ١٩٨٨م٠

(٢) فصول فى الشعر ونقده ــ د/ شوقى ضيف صـ٢٨، ٢٩ ــ ط دار المعارف ــ الطبعة الثالثة ــ د.ت٠

(٣) موسيقى الشعر د/ إبراهيم أنيس صـ١٦، ١٧، بتصرف ــ الطبعة الخامسة د.ت٠

وموسيقى الشعر العربى تقوم فيما تقوم على الوزن والقافيــة، إذ بهما معا تتحقق وحدة النغم ، ويحــدث حســن الإيقــاع، وتلــك الموسيقى التى تقوم على الوزن والقافية يطلق عليهــا الموســيقى الخارجية..وهناك لون آخر من الإيقاع يسمى الموسيقى الداخلية.

وفى السطور التالية ســنتعرف ــ بــإذن الله تعــالى ــ علــى مكونات الموسيقى بنوعيها فى القصيدة النونية .

وسأبدأ بالحديث عن الموسيقى الخارجية ــ تلك التى تتمثل فى الوزن والقافية .

أولا ـ الوزن ـ ويقصد بــه : "مجموع التفعيلات التى يتألف منهــا البيت، وقد كان البيت هو الوحدة الموسيقية للقصيدة العربية"(١) وهى ــ أى الأوزان قديمة قدم الشعر : "فمنذ وجد الشــعر وجــدت معــه الأوزان، فالشاعر لا ينطق بكلامه فى لغــة عاديــة، وإنمــا ينطقــه موزونا، وكأنه يلبى فينا غريزتنا، أو فطرتنا الأولى قبــل أن تنشــأ اللغات، إذ كنا نتصايح بأصواتنا، وكأنما كل صيحة كانت كلمة، أو قل قصيدة، نعبر بها عن مشاعرنا ، وإحساساتنا"(٢).

وقد صب الشاعر قصيدته فى قالــب بحــر المتقــارب التــام بتفعيلاته : "فعولن" ثمانى مرات، وبحر المتقارب من البحور المألوفة الشائعة فى الاستعمال العربى، حيث يكثر نظــم القصــائد المختلفــة المضامين على وزنه.

(١) النقد الأدبى ــ د/ غنيمى هلال صــ٤٣٦ ــ ط دار نهضة مصر ــ د.ت.

(٢) النقد الأدبى د/ شوقى ضــيف صــــ٩٩ ط دار المعــارف ــ ط السادسة ــ د.ت.

ثانيا: القافية:

القافية هى شريكة الوزن ، وصنوه، وهى مقوم رئيس من مقومات الشعر، تطرب لها الأسماع، وتستريح لوقعها النفوس، وهى موضع عناية الشعراء والنقاد، ومناط اهتمامهم، إذ إنها: "آخر ما يطرق السمع من البيت، وعندها يقف الشاعر قليلا تاركا هذه القافية لتعمل عملها فى النفس"(١).

ومن أجل أهمية القافية راح النقاد يعقدون لها الأبواب للوقوف على حقيقتها، وأنواعها، وشروط جمالها وجودتها، والتعرف إلى أسباب ضعفها وعيوبها ... وجعلوا من شروط جودتها: "أن تكون متمكنة فى مكانها من البيت، ومعنى تمكن القافية: أن معنى البيت يتطلبها، وأنها جاءت طيعة غير مغتصبة ولا مستكرهة، لتكمل هذا المعنى، وهى لذلك مرتبطة بما قبلها ارتباطا وثيقا، وأن تكون عذبة سلسة المخرج ، لا تختم بما يدل على رقة فى مقام القوة والفحولة"(٢).

وقد اختار الشاعر لقصيدته حرف النون ليكون رويا لها، وحرف النون من الحروف الشائعة فى الاستعمال العربى، وبهذا تكون القافية هنا من القوافى الذلل السهلة المألوفة، وأرى أن الشاعر قد وفق فى قافيته هنا إلى حد كبير، حيث جاء حرف النون مناسبا لجو القصيدة، وأتى موافقا لمضمونها، إذ من خلاله (أى هذا الحرف) استطاع الشاعر أن يبرز ما فى أعماقه من مشاعر حزينة، وأحاسيس أليمة، ويجسد ما يتنازع نفسه من صراع، وما يتملكها من حيرة واضطراب إزاء ما حدث، منبئا بذلك عن مضمون القصيدة ...:

(١) أسس النقد الأدبى عند العرب ــ د/ أحمد بدوى صـ٣٤٦ ـــ ط دار نهضة مصر د.ت .

(٢) أسس النقد الأدبى عند العرب ــ د/ أحمد بدوى صـ٣٤٦ .

"فالنون حرف له دلالة خاصة فى اللغة العربية، وهو كثير الدوران بها، وهو ليس مجرد صوت؛ لأنه من خلالها يمكن الحدس بمضمون القصيدة ... وهو صوت مجهور يساعد على إبراز الشعور بقوة الإحساس، والألم والحزن"(١).

هذا عن حرف الروى ــ ذلك الذى اتخذه الشاعر قافية لقصيدته، أما عن حال القافية فى القصيدة فيمكن القول بأنها أتت ــ فى أكثر الأبيات ــ جيدة الوقع، طيعة، غير قلقة، ولا متكلفة، ولا مغتصبة، ولا مستكرهة، وإنما وقعت فى مكانها متمكنة، قد تطلبها المعنى ، واستدعاها المضمون، واحتاج إليها السياق، حيث ختم الشاعر أبياته بختام دال بليغ ملائم لما قبله من معان فى حشو البيت، ذى ارتباط وثيق بالسياق الذى ورد فيه.

والذى يطالع القصيدة النونية يجد أن صاحبها قد وفق فى كثير من قوافيه فيها، فجاءت مواتية، متصلة بالأفكار والخواطر فى الأبيات، ومكملة لمضمونها .

ومن مظاهر اعتناء الشاعر بقوافيه هنا أنه يرشح لها... فنراه يقدم فى البيت ما يشعر بالقافية.. وهذا يتحقق فى الكثير من قوافيه.

ومن ذلك قوله وقد رشح للقافية:

تخيير كاتبه كافرا ∴ ولو شاء كان من المسلمين

وقوله:

وطافوا لدينا بأخراجهم ∴ عليهم صغار وذل وهون

وقوله:

وكيف انفردت بتقريبهم ∴ وهم فى البلاد من المبعدين؟!

---

(١) موسيقى الشعر بين الثبات والتطور د/ صابر عبدالدايم يونس صـ٢٣ ــ ط مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م.

ففى البيت الأول رشح الشاعر للقافية ، وقدم عليها ما ينبىء عنها، ويدل عليها، حيث ذكر قبلها كلمة: (كافر) ــ تلك التى يقابلها بالضرورة كلمة: (المسلمين) ــ تلك التى وقعت قافية للبيت ٠

والبيت الثانى جاءت فيه القافية "هون" جيدة الوقع، حسنة المأتى، فهى مترادفة مع الكلمتين السابقتين عليها: "صغار، ذل" هاتان اللتان رشحهما الشاعر للقافية هنا، وهي ــ أى القافية ــ جاءت هنا تأكيدا للمعنى، وإمعانا فى تصويره، حيث يمعن الشاعر من خلالها فى إبراز حال اليهود، وتجسيد واقعهم الذى يستحقونه، ويلائم طبيعتهم وحقيقتهم من الذل والصغار والهوان٠

والحال نفسه متحقق فى البيت الثالث، حيث رشح فيه الشاعر لقافيته، ودل عليها قبل ورودها، وذلك بتعبيره بكلمة: "تقريبهم" الواردة فى نهاية الشطرة الأولى ــ تلك التى تقابلها فى المضمون كلمة "المبعدين" ــ موضع القافية فى البيت٠

وهكذا ــ ومن خلال هذه الأبيات المذكورة ــ يبدو جليا كيف أن قوافى الشاعر جاءت متمكنة هنا، قد تطلبها المعنى، واقتضاها المضمون، فلم تأت قلقة، ولا مجتلبة من أجل الوزن فقط، وإنما كانت كالشىء المنتظر، والأمر المرتقب الذى يأتى على شوق ولهفة٠

هذا عن الموسيقى الخارجية ومظاهرها فى القصيدة، أما عن النوع الآخر من الإيقاع ــ وهو الموسيقى الداخلية: "تلك التى تنبع [عند الشاعر] من اختياره لكلماته، وما بينها من تلاؤم فى الحروف والحركات، وكأن للشاعر أذنا وراء أذنه الظاهرة تسمع كل شكلة، وكل حرف وحركة بوضوح تام، وبهذه الموسيقى الخفية يتفاضل الشعراء"[١] ٠

(١) فى النقد الأدبى ــ د/ شوقى ضيف صـ٩٧ ٠

عن هذا النوع من الإيقاع فى القصيدة أقول: إن النـــاظر فـــى النونية يلحظ أن الشاعر قد عنى بموسيقاه الداخلية، ومـــن مظـــاهر ذلك: انتفاؤه الألفاظ الدالة، والتراكيب الموحية القادرة على التعبيـــر عن معانيه،بالإضافة إلى حرصه على تزيين مطلع قصيدته بالتصريع، واستعانته ببعض ألوان البديع من طباق، وجناس، وحســـن تقســـيم، وإن لم يكثر من ذلك ٠

حيث يمكن القول بأن الشاعر قد اعتمد فى تكـــوين موســـيقاه الداخلية على القيم الصوتية التالية: التصـــريع، الطبـــاق، الجنـــاس، حسن التقسيم٠

أما عن التصريع فيبدو متحققا عند الإلبيرى فى مطلع قصيدته، حيث يقول:

ألا قـــل لصـــنهاجة أجمعـــين ∴ بـــدور النـــدى وأســـد العـــرين

فقد حرص الشاعر على تزيين مطلع قصيدته ــ كما نـــرى ــ بهذه القيمة الصوتية الرائقة ــ تلك التى يستوى فيها آخر جزء فـــى صدر البيت مع آخر جزء فى عجزه فى الـــوزن[١]، والتـــى تجـــذب الانتباه، وتسترعى الأنظار، وتكسب الكلام مزيدا من الإيقاع والـــنغم الداخليين المؤثرين فى النفس، وهى: (أى ظاهرة التصريع) فوق ذلك كله تنبئ عن القافية، وتدل عليها قبل ورودها ــ فمما هو معـــروف أن التصريع: "نوع آخر من أنواع المناسبة بين مقاطع الكلام يجعـــل له وقعا موسيقيا طيبا فى النفس، ولذا ولع به الشـــعراء، وأغرمـــوا بتزيين مطالع أشعارهم بهذه النغمة الموسيقية الأخاذة"[٢]٠

(١) ينظر: أسس النقد الأدبى عند العـــرب د/ أحمـــد أحمـــد بـــدوى صـــ٣٠٧ ٠

(٢) دراسات صوتية بلاغية ــ د/ عبدالجواد محمد طبق ــ صـــ١٥٣ ــ الطبعة الثانية ــ ١٤١٧هـــ ــ ١٩٩٧م٠

كما استعان الشاعر بالطباق مكثرا من استعماله فى القصيدة، مؤكدا معانيه ومضامينه، وفى ذات الوقت مكسبا كلامه لونا من الموسيقى الداخلية العذبة، وقد أتت الدراسة على هذه المواضع[١] التى تحققت فيها هذه الظاهرة فى القصيدة.

والجناس أيضا كان له وجود فى بعض أبيات النونية، حيث أفاد منه الشاعر فى إحداث ذلك الإيقاع الداخلى بين تلك الكلمات التى تتفق فى كل حروفها أو بعضها، ولكنها تختلف فى معانيها، من مثل:

وهم يقبضون جباياتها ∴ وهم يخضمون وهم يقضمون

فبين: (يخضمون ــ يقضمون) جناس رائع تحقق فيه جمال النغم، والمضمون معا، فبجانب تلك النغمة الصوتية الرائقة التى يحدثها هذا التوافق الشديد بين حروف الكلمتين ــ بجانب ذلك يؤكد هذا المحسن البديعى المعنى، ويجليه، ويبرزه هنا، حيث يمعن الشاعر ــ من خلاله ــ فى الدلالة على تنعم اليهود فى مجتمع غرناطة بكل ألوان الخير، واستئثارهم بألوان النعيم كلها من دون المؤمنين.

وحتى يحدث الشاعر فى بعض أبيات قصيدته موسيقى داخلية عذبة، وحتى يكسب بعض كلماته إيقاعا داخليا آسرا، نراه يحرص على أن يسوى بين بعض أجزاء أبياته فى الوزن والقافية والصياغة ــ وهو ما يعرف بحسن التقسيم، مضفيا من خلال ذلك على كلماته مزيدا من الإيقاع الداخلى الآسر، ومن ذلك قوله:

وقد ناهضوكم إلى ربكم ∴ فما تمنعون ولا تنكرون!
وقد لابسوكم بأسحارهم ∴ فما تسمعون ولا تبصرون!

(١) وذلك فى أثناء حديثى عن هذه الظاهرة ــ (أعنى: ظاهرة الطباق) ــ بصفتها إحدى الأساليب التى استعملها الشاعر فى أداء معانيه.

حيث اختتم الشاعر بيتيه ــ كما نرى ــ بكلمات متماثلة في الوزن والقافية والصياغة، وتحديدا في قوله:

فما تمنعون ولا تنكرون!
فما تسمعون ولا تبصرون!

وغير خاف ما تتوافر عليه هذه الكلمات المتساوقة من نغم عذب، وإيقاع داخلي جميل ، من شأنه أن يمتع الآذان، ويريحها، ويسر النفوس ويؤنسها ٠

ويبدو حسن التقسيم متحققا بوضوح أيضا ــ في قول الشاعر:

وفرق عداهم وخذما لهم ∴ فأنت أحق بما يجمعون

حيث لا يخفى ما بين كلمات الشطرة الأولى من حسن تقسيم، بعد أن تماثلت أجزاؤها، واتحدت في الوزن والحرف الأخير منها، ومن ثم أحدثت نغما داخليا عذبا، وإيقاعا أخاذا أضفى على البيت رونقا وبهاء، وأدخل على النفس راحة وسرورا٠

الخاتمة

الحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات، وبحوله وطوله تقضى الحاجات، وبعونه ومدده تذلل العقبات، والصلاة والسلام على خير البريات، وهادى الناس بإذن ربهم إلى الخيرات، سيدنا محمد عليه الصلوات والتسليمات، وعلى آله وصحبه السابقين بالخيرات.

وبعد

فأرجو وآمل من المولى سبحانه أن أكون قد وفقت فى معالجة تلكم الدراسة الأدبية التحليلية للقصيدة النونية ــ من خلال الوقوف على جوانبها الموضوعية والفنية، موضحا ومحللا، وأن تكون هذه المعالجة قد أعطت صورة واضحة، وتصورا كاملا لتلكم القصيدة موضوع الدراسة هنا.

ويطيب لى بعد أن فرغت بفضل الله ــ سبحانه ــ من التجول فى عالم تلكم القصيدة الفكرى، وانتهيت من السياحة فى آفاقها الفنية، واستكناه أسرارها الجمالية ــ يطيب لى أن أسجل هنا أبرز النتائج التى استخلصتها من هذه الدراسة، وأورد أهم الملاحظات التى لحظتها فى أثناء تناولى لجزئياتها، وهى كما يلى:

أولا : تنطق هذه القصيدة بما كان للعلماء ــ لاسيما فى الأندلس فى ذلك الوقت ــ ممن جمع منهم بين فضيلتى العلم والشعر ــ من دور بارز، ومواقف جريئة فى شعرهم من الحكام والساسة فى عصورهم ــ فيما كانوا ينهجونه من نهج غير سديد، وانتقادهم فى غير ما خوف ولا رهبة فيما يصدر منهم من تصرفات لا تروق

المسلمين، وتنال منهم، ومن دينهم، مثلما هو الحال هنا مع العالم الفقيه أبىإسحاق الإلبيرى فى جهره بالحق، وصدعه به إزاء الأمير دونما مواربة ولا مجاملة، قائما فى ذلك بدور الناصح الأمين، والموجه الرشيد، ومنطلقا من موقعه بين الناس ــ بصفته عالما يعلم الناس، ويهديهم ــ بإذن ربهم٠

ثانيا ــ تعد هذه القصيدة شاهد صدق على عصرها، حيث توقفنا على طبيعة تلك الفترة من فترات حكم المسلمين فى الأندلس، وتحديدا فى أيام الأمير المعني بالحديث، وما كان يحيا فيه مجتمع غرناطة آنئذ من واقع مقلوب، عز فيه اليهود، وذل المسلمون بعدما مال الأمير إلى اليهود، واتخذهم أولياء من دون المؤمنين٠

ثالثا ــ استطاع الشاعر من خلال النونية، ونجح عبر أبياتها فى تقرير وتأكيد حقيقة اليهود، والكشف عن طبيعتهم، والإشارة إلى ما يستحقونه من معاملة تتناسب مع طبيعتهم، وما يجب على المسلمين أن ينزلوهم الموقع اللائق بهم، حرصا على ما فيه العزة والإباء والتمكين للإسلام والمسلمين، ومن ثم كثيرا ما رأينا الشاعر يحذر فى قصيدته الأمير من اليهود، ملحا فى التحذير من موالاتهم، نازلا فى ذلك على هدي الدين الحنيف فى كتابه الحكيم، وسنة المصطفى الكريم ﷺ ٠

رابعا ــ جنح الشاعر فى صياغته للوضوح الشديد، مؤثرا فى ذلك لغة قريبة تتناسب مع موضوع التجربة، وكذا مع من ألقيت فيهم القصيدة، حيث سبقت الإشارة إلى أن هذه القصيدة تحمل بين كلماتها رسالة يوجهها الشاعر، ورأيا يبديه ويجهر به بين يدى الأمير ،

وغير خاف أيضا ــ ذلك الجمهور الذى ألقيت فيه القصيدة "البربر" وطبيعته التى لا تعرف عن العربية الكثير، ولا تدرك أسرار تراكيبها، ولا تتذوق حلاوة أساليبها، وإنما يكفيها من الكلام ما وضح معناه، وقرب مضمونه، ومن ثم فلا مجال لتزيين الكلام، وتأنيقه.

خامسا ــ والحال نفسه متحقق فى الصورة الفنية، حيث اقتصد الشاعر ــ إلى حد كبير ــ فى استعمالها، فبدت فى قصيدته قليلة، ووردت فى كلماته بقدر، ويمكن أن نرجع ذلك إلى السببين السالفى الذكر، واللذين كانا سببا فى إيثار الشاعر للصياغة الواضحة القريبة فى القصيدة.

سادسا ــ أكثر الشاعر من استخدام الأساليب الخبرية ــ تلك التى أتت منسجمة مع مضمون القصيدة ، وملائمة لجوها .. حيث يغلب عليها سرد الأخبار، وتقرير الحقائق وتأكيدها، وهذا اللون من المعانى يناسبه الأساليب الخبرية أكثر من الإنشائية، وإن كان للأخيرة وجود وتحقق فى القصيدة، فكلاهما يؤدى ما عليه من دور يناسب طبيعته ، ويتفق مع المضمون الذى يرد فيه.

سابعا ــ وفق الشاعر من خلال عقده موازنات بين حال المسلمين واليهود، إثر تولى واحد منهم الوزارة ــ وفق من خلال تلك المقابلات فى إبراز وتجسيد ذلك الواقع المهزوم الذى كان يحياه المسلمون آنئذ، وفى ذات الوقت استطاع أن يحرك مشاعر الثورة والرفض داخل المسلمين إزاء ما حدث ، حيث

كانت هذه المقابلات بمثابة الوقود الذى أذكى نار الحمية والحماس فى نفوسهم.

ثامنا ــ أفاد الشاعر عبر النونية من الصياغة القرآنية الحكيمة، وتأثر بمضمونها الرشيد، ولا غرو فى ذلك؛ فهو (أى الشاعر) قبل أن يكون شاعرا ــ فقيه ، حافظ للقرآن الكريم ، واقف على معانيه، متشرب لها، ومتمثل إياها، وطبيعى أن يكون لذلك أثر فى شعره.

تاسعا ــ اتسمت عاطفة الشاعر فى النونية بصفات القوة والصدق والثبات والسمو، ولا غرو، فقد انطلق فيها ــ كما ذكرت ــ من منطلق حب الدين الإسلامى، والحرص على ما فيه الخير والصلاح للمسلمين.

عاشرا ــ خلت معانى الشاعر فى القصيدة من التناقض فى الأفكار، وهذا يدلنا دلالة واضحة على نضج الفكرة فى عقله، واستوائها فى ذهنه.

حادى عشر : صب الشاعر قصيدته فى قالب من القوالب التقليدية فى الشعر العربى ، حيث عزف من خلالها على قيثارة بحر من بحور الشعر العربى الشائعة فى الاستعمال هو بحر المتقارب.

ثانى عشر ــ أتت قوافى الشاعر ــ فى أغلبها ــ متمكنة، يقتضيها المعنى، ويتطلبها المضمون، وينتظرها السامع فى تشوق، بعيدة فى ذلك عن التكلف والقسر.

ثالث عشر ــ حرص الشاعر على أن يكسب قصيدته بعضا من مظاهر الإيقاع الداخلى، حيث زين مطلعها بالتصريع، كما زين طرفا من أساليبها بالطباق، والجناس، وحسن التقسيم، مما أحدث بين كلمات القصيدة إيقاعا داخليا عذبا ٠

والحمد لله فى بدء وفى ختم

الباحث

المصادر والمراجع

القرآن الكريم٠

١ - الإحاطة فى أخبار غرناطة ــ لسان الدين بن الخطيب ــ تحقيق د/محمد عبدالله عنان ــ ط مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ ــ ١٩٧٤م٠

٢ - أسس النقد الأدبى عند العرب ــ د/ أحمد أحمد بدوى ــ ط دار نهضة مصر ــ د.ت٠

٣ - الأسلوب ــ د/ أحمد الشايب ــ ط مكتبة النهضة المصرية ــ الطبعة الثامنة ١٩٨٨م٠

٤ - أصول النقد الأدبى ــ د/ أحمد الشايب ــ ط مكتبة النهضة المصرية ــ القاهرة ــ الطبعة الثامنة ١٩٨٨م٠

٥ - بناء القصيدة فى النقد العربى القديم فى ضو النقد الحديث ــ د/يوسف حسين بكار ــ ط دار الأندلس ــ بيروت ــ لبنان ــ الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ ــ ١٩٨٢م٠

٦ - البيان والتبيين: الجاحظ ــ تحقيق فوزى عطوى ــ ط شركة الكتاب اللبنانى ــ بيروت ١٩٦٨م٠

٧ - دراسات أندلسية فى الأدب والتاريخ والفلسفة ــ حرر بعضها وترجم البعض الآخر د/ الطاهر أحمد مكى ــ ط دار المعارف ــ الطبعة الثالثة ١٩٨٧م٠

٨ - دراسات صوتية بلاغية ــ د/ عبدالجواد محمد طبق ــ الطبعة الثانية ١٤١٧هـ ــ ١٩٨٧م٠

٩ - الديوان: لمؤلفيه: العقاد، والمازنى ـ ط دار الشعب ـ الطبعة الثالثة د.ت.

١٠ - ديوان أبى إسحاق الإلبيرى ـ تحقيق د/ محمد رضوان الداية ـ ط دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان ـ ط دار الفكر ـ دمشق ـ سورية ـ الطبعة الأولى ١٤١١هـ ـ ١٩٩١م.

١١ - شعر خلفاء بنى أمية ـ تحقيق ودراسة الدكتور/ السيد أحمد عمارة ـ ط مطابع غباشى بطنطا ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

١٢ - الشعر والشعراء ـ ابن قتيبة ـ تحقيق أحمد محمد شاكر ـ ط دار المعارف ـ د.ت.

١٣ - الصناعتين : أبوهلال العسكرى ـ تحقيق على محمد البجاوى، محمد أبوالفضل إبراهيم ـ مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه ـ الطبعة الثانية ١٩٧٠م.

١٤ - العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده ـ ابن رشيق القيروانى ـ ط بيروت ـ الطبعة الخامسة ١٩٨١م.

١٥ - عناصر الإبداع الفنى فى شعر الأعشى ـ عباس بيومى عجلان ـ ط دار المعارف ـ مطابع جريدة السفير ـ الإسكندرية ـ د.ت.

١٦ - فصول فى الشعر ونقده ـ د/ شوقى ضيف ـ ط دار المعارف الطبعة الثالثة د.ت.

١٧ - فى ميزان النقد الأدبى ـ د/ طه مصطفى أبوكريشة ـ ط المليجى ١٩٦٧م.

١٨ - فى النقد الأدبى الحديث ـ د/ محمد إسماعيل شاهين ـ مطبعة الأمانة ـ الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٦م.

١٩ - معجم البلدان: الشيخ شهاب الدين أبوعبدالله ياقوت الحموى ــ ط دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ــ د.ت٠

٢٠ - مع شعراء الأندلس والمتنبى ــ سير ودراسات إميليوغرسية غومث ــ تعريب وترجمة د/ الطاهر أحمد مكى ــ ط دار المعارف ــ الطبعة السادسة ١٤١٧هـ ــ ١٩٩٦م٠

٢١ - المقدمة : ابن خلدون ــ مطبعة التقدم بمصر ١٣٢٢هـ٠

٢٢ - موسيقى الشعر ــ د/ إبراهيم أنيس ــ ط دار نهضة مصر ــ الطبعة الخامسة د.ت٠

٢٣ - موسيقى الشعر بين الثبات والتطور ــ د/ صابر عبدالدايم يونس ــ ط مكتبة الخانجى ــ القاهرة ــ الطبعة الثالثة ١٤١٣هـ ــ ١٩٩٣م٠

٢٤ - النقد الأدبى ــ د/ شوقى ضيف ــ ط دار المعارف ــ السادسة د.ت٠

٢٥ - النقد الأدبى الحديث فى مذاهبه وقضاياه ــ د/ عبدالفتاح على عفيفى ــ ط ١٩٨٧م٠